من كليات رسائل النور



حقيقة التوحيد

أو التوحيد الحقيقي

بديع الزمان

سعيد النورسي

ترجمة

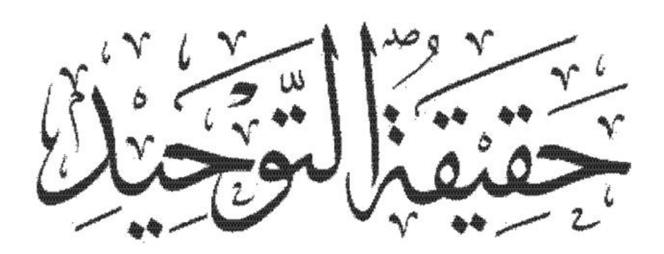
إحسان قاسم الصالحي





اسم الكتاب: حقيقة التوحيد(أو) التوحيد الحقيقي
اسم المؤلف: بديع الزمان سعيد النورسي
اسم المترجم:إحسان قاسم الصالحي
اسم الناشر: مكتبة النقاء– بغداد- العراق
الطبعة : الأولى – ١٩٨٥م

من كليات رسائل النور



أو التوحيد الحقيقي

تأليف

بديع الزمان سعيد النورسي

ترجمة

احسان قاسم الصالحي

الكلمة الثانية والعشرون



[هذه الكلمة عبارة عن مقامين]

المقام الأول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)

(إبراهيم:٢٥)

﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(الحشر:٢١)

استحمّ شخصان ذات يوم في حوض كبير، فغشيَهما ما لا طاقة لهما به ففقدا وَعيَهما. وما إن أفاقا حتى وجَدا أنهما قد جِيء بهما إلى عالَمٍ غير عالَمهما، إلى عالم عجيب، وعجيب فيه كل شيء. فهو من فرط انتظامه الدقيق كأنه مملكة منسّقة الأطراف، ومن روعة جماله بمثابة مدينةٍ عامرة، ومن شدة تناسق أركانه بحكم قصر بديع. وبدَءَا ينظران بلهفةٍ فيما حولهما وقد امتلاءا حَيرةً وإعجابا بما رأيا أمامَهما من عالم عظيم حقا؛ إذ لو نُظر إلى جانبٍ منه لشوهدت مملكة منتظمة، وإذا ما نُظر إليه من جانب آخر لتراءت مدينة كاملة الجوانب، بينما إذا نُظر إليه من جانب آخر فإذا هو بقصر عظيم شاهق يضم عالَمًا مهيبا.. وطفقا يتجولان معا في أرجاء هذا العالم العجيب فوقع نظرُهما على مخلوقات يتكلمون بكلام معين لا يفقهانه، إلّا أنهما أدركا من إشاراتهم وتلويحاتهم أنهم يؤدون أعمالا عظيمة وينهضون بواجبات جليلة.

قال أحدهما للآخر: لاشك أن لهذا العالم العجيب مدبّرا يدبّر شؤونَه، ولهذه المملكة البديعة مالكا يرعاها، ولهذه المدينة الرائعة سيدا يتولى أمورها، ولهذا القصر المنيف صانعا بديعا قد

أبدعه، فأرى لزاما علينا أن نسعى لمعرفته، إذ يبدو أنه هو الذي قد أتى بنا إلى هاهنا، وليس أحد غيره. فلو لم نعرفه فمَن ذا غيرهُ يُسعفنا ويُغيثنا ويقضي حوائجنا ونحن في هذا العالم الغريب؟ فهل ترى بصيصَ أملٍ نرجوه من هؤلاء العاجزين الضعفاء ونحن لا نفقه لسانَهم ولا هم يصغون إلى كلامنا؟. ثم إن الذي جعل هذا العالم العظيم على صورة مملكة منسقة وعلى هيئةِ مدينة رائعة وعلى شكل قصر بديع، وجعله كنـزا لخوارق الأشياء، وجمّله بأفضل زينة وأروع حُسن، ورصّع نواحيه كلّها بمعجزات معبّرة حكيمة.. أقول: إن صانعا له كل هذه العظمة والهيبة وقد أتى بنا -وبمَن حولنا- إلى هاهنا، لاشك أن له شأنا في هذا. فوَجَب قبل كل شيء أن نعرفَه معرفةً جيدة وأن نعلم منه ما يريد منا وماذا يطلب؟

قال له صاحبه: دع عنك هذا الكلام. فأنا لا أصدّق أن واحدا أحدا يدير هذا العالم الغريب!

فأجابه: مهلا يا صاحبي! هلّا أعَرتني سمعَك! فنحن لو أهملنا معرفته فلا نكسب شيئا قط، وإن كان في إهمالنا ضرر فضررُه جدّ بليغ. بينما إذا سعَينا إلى معرفته فليس في سعينا هذا مشقة ولا

نلقى من ورائه خسارةً، بل منافعَ جليلة وعظيمة. فلا يليق بنا إذن أن نبقى مُعرِضين هكذا عن معرفته.

ولكن صاحبه الغافل قال: أنا لست معك في كلامك هذا. فأنا أجد راحتي ونشوَتي في عدم صرف الفكر إلى مثل هذه الأمور، وفي عدم معرفة ما تدّعيه عن هذا الصانع البديع. فلا أرى داعيا أن أجهد نفسي فيما لا يسعُه عقلي. بل أرى هذه الأفعال جميعها ليست إلّا مصادفات وأمورا متداخلة متشابكة تجري وتعمل بنفسها؟ فما لي وهذه الأمور؟..

فردّ عليه العاقل: أخشى أن يُلقي بنا عنادُك هذا وبالآخرين إلى مصائب وبلايا. ألَمَ تُهدَم مدن عامرة من جراء سفاهة شقيّ وأفعالِ فاسق؟

ومرة أخرى انبرى له الغافل قائلا:لنحسم الموضوعَ نهائيا فإمّا أن تثبت لي إثباتا قاطعا لا يقبل الشك بأن لهذه المملكة الضخمة مالكا واحدا وصانعا واحدا أحدا، أو تَدَعني وشأني.

أجابه صديقه: ما دمتَ يا صاحبي تصرّ على عنادك إلى حد الجنون والهذيان مما يسوقنا والمملكةَ بكاملها إلى الدمار! فسأضع بين يديك اثني عشرَ برهانا أثبتُ بها أنّ لهذا العالم الرائع

روعةَ القصر، ولهذه المملكة المنتظمة انتظامَ المدينة، صانعا بديعا واحدا أحدا هو الذي يدبّر الأمور كلَّها. فلا ترى من فطورٍ في شيء، ولا ترى من نقصٍ في أمر. فذلك الصانعُ الذي لا نراه يبصُرنا ويبصر كلّ شيء، ويسمع كلام كل شيء، فكلُّ أفعالِه معجزات وآيات وخوارق وروائع. وما هذه المخلوقات التي لا نفهم ألسنتهم إلّا مأمورون وموظفون في مملكته.

البرهان الأول

تعالَ معي يا صاحبي لنتأمل ما حولنا من أشياء وأمور. ألا ترى أنّ يدا خفية تعمل من وراء الأمور جميعها؟ أوَ لا ترى أن ما لا قوة له أصلا ولا يقوى على حَمل نفسِه[1] يحمل آلافَ الأرطال من الحمل الثقيل؟ أوَ لا تشاهد أنّ ما لا إدراك له ولا شعور يقوم بأعمالٍ في غاية الحكمة؟[2] فهذه الأشياء إذن لا تعمل مستقلةً بنفسها، بل لابد أنّ مولىً عليما، وصانعا قديرا يديرها من وراء

---

[1] إشارة إلى البذور والنوى التي تحمل أشجارا ضخمة. (المؤلف)

[2] إشارة إلى سيقان العنب مثلا، التي تمد أيديها اللطيفة وتعانق الأشجار الأخرى، لضعفها عن حمل عناقيدها الغنية. (المؤلف)

الحجب. إذ لو كانت مستقلةً بذاتها، وأمرُها بيدها، لَلَزم أن يكون كلُّ شيء هنا صاحبَ معجزة خارقة. وما هذه إلّا سفسطة لا معنى لها!

البرهان الثاني

تعالَ معي يا صاحبي لنمعن النظر في هذه الأشياء التي تزيّن الميادين والساحات، ففي كل زينة منها أمور تخبرنا عن ذلك المالك وتدلّنا عليه. كأنها سكّتُه وختمُه. كما تدلنا طغراءُ السلطان وختمُه على وجوده، وتُنبئنا سكّتُه التي على مسكوكاته عن عظمته وهيبته. فإن شئت فانظر إلى هذا الجسم الصغير جدا الذي لا يكاد الإنسان يعرف له وزنا،[3] قد صنع منه المولى أطوالا من نسيج ملوّن بألوان زاهية ومزركش بزخارف باهرة، ويُخرج منه ما هو ألذّ من الحلويات والمعجنات المعسّلة، فلو لبس آلاف من أمثالنا تلك المنسوجات وأكل من تلك المأكولات لما نفدت.

ثم انظر، إنّه يأخذ بيده الغيبية هذا الحديد والتراب والماء

---

[3] إشارة إلى البذور المتنوعة، فبذور البطيخ والخوخ وغيرها تنسج أوراقا أجمل من أجود قماش، وتقدم لنا ثمارا طيبة هي ألذ من الحلوى تأتي بها من خزينة الرحمة الإلهية. (المؤلف)

والفحم والنحاس والفضة والذهب ويصنع منها جميعا قطعةَ لحم.[٤]

فيا أيها الغافل.. هذه الأشياء والأفعال إنما تخصّ مَن زمامُ هذه المملكة بيده، ومَن لا يعزُب عنه شيء، وكلُّ شيء منقاد لإرادته.

البرهان الثالث

تعالَ لننظر إلى مصنوعاته العجيبة المتحركة.[٥] فقد صُنع كلّ منها كأنه نسخة مصغرة من هذا القصر العظيم، إذ يوجد فيه ما في القصر كله. فهل يمكن أن يُدرج أحد هذا القصر مصغّرا في ماكنةٍ دقيقة غير صانعه البديع؟ أو هل يمكن أن ترى عبثا أو مصادفة في عالَمٍ ضُمَّ داخل ماكنة صغيرة؟

أي إن كل ما تشاهده من مكائن إنما هي بمثابة آية تدل على

---

[٤] إشارة إلى خلق جسم الحيوان من العناصر، وإلى إيجاد الكائن الحي من النطفة. (المؤلف)

[٥] إشارة إلى الحيوانات والإنسان، لأن الحيوان فهرس مصغّر لهذا العالم، والماهية الإنسانية مثال مصغر للكائنات، فما من شيء في العالم إلّا ونموذجه في الإنسان. (المؤلف)

ذلك الصانع البديع، بل كل ماكنة دليل عليه، وإعلان يفصح عن عظمته، ويقول بلسان الحال: نحن مِن إبداع مَن أبدع هذا العالَمَ بسهولة مطلقة كما أوجدَنا بسهولة مطلقة.

البرهان الرابع

أيها الأخ العنيد! تعالَ أرِكَ شيئا أكثر إثارة للإعجاب! انظر، فها قد تبدّلت الأمور في هذه المملكة، وتغيّرت جميع الأشياء، وها نحن أولاء نرى بأعيننا هذا التبدل والتغير، فلا ثبات لشيء مما نراه بل الكل يتغير ويتجدد.

انظر إلى هذه الأجسام الجامدة المشاهَدة التي لا نرى فيها شعورا، كأن كلا منها قد اتخذ صورةَ حاكمٍ مطلق والآخرون محكومون تحت سيطرته، وكأن كلا منها يسيطر على الأشياء كلها. انظر إلى هذه الماكنة التي بقربنا[1] كأنها تأمر فيهرع إليها من بعيد ما تحتاجه من لوازم لزينتها وعملها، وانظر إلى ذلك الجسم الذي لا

---

[1] إشارة إلى النباتات المثمرة لأنها تحمل مئات المصانع والمعامل الدقيقة في أعضائها الرقيقة فتنسج الأوراق اللطيفة والأزهار الزاهية وتُنضج الثمار اليانعة وتقدّمها إلينا. ومنها أشجار الصنوبر الشامخة التي نصبت معاملها على الصخور الصماء في الجبال. (المؤلف)

شعور له،[٧] كأنه يسخِّر بإشارةٍ خفيّة منه أضخَم جسمٍ وأكبره في شؤونه الخاصة ويجعله طوع إشارته.. وقس الأمور الأخرى على هذين المثالين.

فإن لم تفوِّض أمرَ إدارة المملكة إلى ذلك المالك الذي لا نراه، فعليك إذن أن تُحيل إلى كل مصنوعٍ ما للبديع من إتقان وكمالات، حتى لو كان حجرا أو ترابا أو حيوانا أو إنسانا أو أي مخلوق من المخلوقات.

فإذا ما استبعد عقلُك أن بديعا واحدا أحدا هو المالك لهذه المملكة وهو الذي يديرها، فما عليك إلّا قبول ملايين الملايين من الصانعين المبدعين، بل بعدد الموجودات! كل منها نِدّ للآخر ومثيلُه وبديلُه ومتدخل في شؤونه! مع أن النظام المتقن البديع يقتضي عدم التدخل، فلو كان هناك تدخل مهما كان طفيفا ومن أي شيء كان، وفي أي أمر من أمور هذه المملكة الهائلة، لظهر أثرُه واضحا، إذ تختلط الأمور وتتشابك إن كان هناك سيِّدان في قرية أو

[٧] إشارة إلى الحبوب والبذيرات وبيوض الحشرات، فتضع البعوضة مثلا بيوضها على أوراق شجرة، فإذا الورقة تكون لها كرحم الأم والمهد اللطيف، وتمتلئ بغذاء لذيذ كالعسل. فكأن تلك الشجرة غير المثمرة تثمر كائنات حية. (المؤلف)

محافظانِ في مدينة أو سلطانانِ في مملكة. فكيف بحكامٍ لا يُعدّون ولا يُحصَون في مملكة منسقة بديعة؟!

البرهان الخامس

أيها الصديق المرتاب! تعالَ لندقّقْ في نقوش هذا القصر العظيم، وَلنُمعِنِ النظرَ في تزيينات هذه المدينة العامرة، ولنشاهد النظام البديع لهذه المملكة الواسعة، ولنتأمل الصنعة المتقنة لهذا العالم. فها نحن نرى أنه إن لم تكن هذه النقوش كتابةَ قلمِ المالك البديع الذي لا حدّ لمعجزاته وإبداعه، وأسندت كتابتُها ونقشُها إلى الأسباب التي لا شعورَ لها، وإلى المصادفة العمياء، وإلى الطبيعة الصماء، للزم إذن أن يكون في كل من أحجار هذه المملكة وعشبها مصوّر معجِز وكاتب بديع يستطيع أن يكتب ألوفَ الكتب في حرف واحد، ويمكنه أن يُدرِج ملايينَ الأعمال المتقنة البديعة في نقشٍ واحد. لأنك ترى أن هذا النقش الذي أمامك في هذه اللبنة[٨]

---

[٨] إشارة إلى الإنسان الذي هو ثمرة الخلقة، وإلى الثمرة التي تحمل فهرس شجرتها وبرنامجها. فما كتبه قلمُ القُدرة في كتاب العالم الكبير قد كتبه مجملا في ماهية الإنسان، وما كتبه قلمُ القَدَر في الشجرة قد دَرَجه في ثمرتها الصغيرة. (المؤلف)

يضم نقوش جميع القصر، وينطوي على جميع قوانين المدينة وأنظمتها، ويتضمن خطط أعمالها. أي إن إيجاد هذه النقوش الرائعة معجزة عظيمة كإيجاد المملكة نفسها، فكل صنعة بديعة ليست إلّا لوحةُ إعلانٍ تُفصح عن أوصاف ذلك الصانع البديع، وكلُّ نقش جميل هو ختم واضح من أختامه الدالة عليه.

فكما أنه لا يمكن لحرفٍ إلّا أن يدل على كاتبه، ولا يمكن لنقشٍ إلّا أن ينبئ عن نقاشه، فكيف يمكن إذن ألّا يدل حرف كُتب فيه كتاب عظيم على كاتبه، ونقش نُقشَت ألوف النقوش على نقّاشه؟ ألا تكون دلالتُه أظهرَ وأوضحَ من دلالته على نفسه؟

البرهان السادس

تعالَ يا صديقي لنذهب إلى نـزهة نتجول في هذه الفلاة الواسعة [9] المفروشة أمامنا.. ها هو ذا جبل أشمّ، تعال لنصعد عليه

---

[9] إشارة إلى سطح الأرض في موسمَي الربيع والصيف. حيث تُخلق مئات الألوف من المخلوقات خلقا متداخلا متشابكا، وتُكتب على صحيفة الأرض دون خطأ ولا قصور، وتُبدّل بانتظام، فتُفرش ألوف مِن ضيافات الرحمن، ثم تُرفع وتُجدد. فكأن كل شجرة خادم مطعم، وكل بستان مطبخ لإعداد المأكولات. (المؤلف)

حتى نتمكن من مشاهدة جميع الأطراف بسهولة، ولنحمِل معنا نظارات مكبّرة تقرب لنا ما هو بعيد عن أنظارنا. فهذه المملكة فيها من الأمور العجيبة والحوادث الغريبة ما لا يخطر على بال أحد. انظر إلى تلك الجبال والسهول المنبسطة والمدن العامرة، إنه أمر عجيب حقا إذ يتبدل جميعُها دفعة واحدة، بل إن ملايين الملايين من الأفعال المتشابكة تتبدل تبدلا بكل نظام وبكل تناسق، فكأن ملايين الأطوال من منسوجات ملونة رائعة تُنسج أمامنا في آن واحد.. حقا إن هذه التحولات عجيبة جدا. فأين تلك الأزاهير التي ابتسمت لنا والتي أَنِسنا بها؟.. لقد غابتْ عنا، وحلّت محلَّها أنواع مخالفة لها صورةً، مماثلة ماهية. وكأن هذه السهول المنبسطة وهذه الجبال المنصوبة صحائفُ كتاب يُكتب في كلٍّ منها كتب مختلفة في غاية الإتقان دون سهو أو خطأ ثم تُمسح تلك الكتب ويُكتب غيرُها.. فهل ترى يا صديقي أن تبدّل هذه الأحوال وتحوّل هذه الأوضاع الذي يتم بكل نظام وميزان يحدث من تلقاء نفسه؟. أليس ذلك محالا من أشد المحالات؟

فلا يمكن إحالة هذه الأشياء التي أمامنا وهي في غاية الإتقان والصنعة إلى نفسها قط، فذلك محال في محال. بل هي أدلة واضحة على صانعها البديع أوضحَ من دلالتها على نفسها، إذ تبيّن

أن صانعَها البديع لا يُعجزه شيء، ولا يَؤودُه شيء، فكتابةُ ألف كتاب أمر يسير لديه ككتابة حرف واحد. ثم تأملْ يا أخي في الأرجاء كافة ترى أن الصانع الأعظم قد وضع بحكمةٍ تامة كلّ شيء في موضعه اللائق به. وأسبغ على كل شيء نِعَمه وكرمه بلطفه وفضله العميم. وكما يفتح أبواب نعمه وآلائه العميمة أمامَ كل شيء، يسعف رغبات كل شيء ويرسل إليه ما يُطمئنه.

وفي الوقت نفسه ينصب موائدَ فاخرة عامرة بالسخاء والعطاء بل يُنعم على مخلوقات هذه المملكة كافة من حيوان ونبات نِعَما لا حدّ لها، بل يُرسل إلى كل فرد باسمه ورسمه نعمتَه التي تلائمه دون خطأ أو نسيان. فهل هناك مُحال أعظم من أن تظن أن في هذه الأمور شيئا من المصادفة مهما كان ضئيلا؟ أو فيه شيئا من العبث وعدم الجدوى؟ أو أن أحدا غيرُ الصانع البديع قد تدخّل في أمور المملكة؟ أو أن يُتصوَّر أن لا يدين له كلُّ شيء في ملكه؟.. فهل تقدر يا صديقي أن تجد مبررا لإنكار ما تراه؟..

البرهان السابع

لنَدَع الجزئيات يا صاحبي، ولنتأمل في هذا العالم العجيب، ولنشاهد أوضاع أجزائه المتقابلة بعضها مع البعض الآخر.. ففي

هذا العالم البديع من النظام الشامل والانتظام الكامل كأنّ كل شيء فاعل مختار حي يشرف على نظام المملكة كلها، ويتحرك منسجما مع ذلك النظام العام. حتى ترى الأشياء المتباعدة جدا يسعى الواحد منها نحو الآخر للتعاون والتآزر.

انظر! إن قافلة مهيبة تنطلق من الغيب[10] مُقبلةً علينا. فهي قافلة تحمل صحون أرزاق الأحياء.. ثم انظر إلى ذلك المصباح الوضيء[11] المعلق في قبة المملكة فهي تنير الجميع وتُنضج المأكولات المعلقة بخيط دقيق[12] والمعروضة أمامه بيدٍ غيبية. ألا تلتفت معي إلى هذه الحيوانات النحيفة الضعيفة العاجزة كيف يسيل إلى أفواهها غذاء لطيف خالص يتدفق من مضخات[13] متدلية فوق رؤوسها، وحسبها أن تلصق أفواهَها بها!

نخلص من هذا: أنه ما من شيء في هذا العالم إلّا وكأنه

---

[10] وهي قافلة النباتات الحاملة لأرزاق الأحياء كافة. (المؤلف)

[11] إشارة إلى الشمس. (المؤلف)

[12] إشارة إلى أغصان الشجرة الدقيقة الحاملة للأثمار اللذيذة. (المؤلف)

[13] إشارة إلى ثدي الأمهات. (المؤلف)

يتطلع إلى الآخر فيُغيثَه، أو يرى الآخر فيشد من أزره ويعاونه.. فيكمل الواحدُ عملَ الآخر ويكون ظهيرُه وسنده، ويتوجه الجميع جنبا إلى جنب في طريق الحياة.. وقِس على ذلك فهذه الظواهر جميعها تدلنا دلالة قاطعة وبيقين جازم إلى أنه ما من شيء في هذا القصر العجيب إلّا وهو مسخّر لمالكه القدير ولصانعه البديع ويعمل باسمه وفي سبيله، بل كل شيء بمثابة جندي مطيع متأهب لتلقي الأوامر. فكل شيء يؤدي ما كُلّف به من واجب بقوة مالكه وحوله، فيتحرك بأمره، وينتظم بحكمته، ويتعاون بكرمه وفضله، ويغيث الآخرين برحمته. فإن كنتَ تستطيع يا أخي إبداء شيء من الاعتراض والشك أمام هذا البرهان فَهاتِهِ.

البرهان الثامن

تعال يا صاحبي المتعاقل ويا مثيل نفسي الأمّارة بالسوء التي تعدّ نفسها رشيدة وتُحسن الظن بنفسها.. أراك يا صاحبي ترغب عن معرفة صاحب هذا القصر البديع، مع أن كل شيء يدل عليه، وكل شيء يشير إليه، وكل شيء يشهد بوجوده. فكيف تجرؤ على تكذيب هذه الشهادات كلها؟. إذن عليك أن تنكر وجود القصر نفسه، بل عليك أن تعلن أنه لا قصر ولا مملكة ولا شيء في

الوجود. بل تنكر نفسَك وتعدّها معدومةً لا وجود لها!.. أو عليك أن تعود إلى رُشدك وتصغي إليّ جيدا، فها أنا أضع بين يديك هذا المنظر:

تأمل في هذه العناصر والمعادن [١٤] التي تعم هذه المملكة والتي توجد في كل أرجاء هذا القصر. ومعلوم أنه ما من شيء ينتج في هذه المملكة إلّا من تلك المواد. فَمن كان مالكا لتلك المواد والعناصر فهو إذن مالك لكل ما يُصنع وينتج فيها. إذ مَن كان مالكا للمزرعة فهو مالكُ المحاصيل، ومَن كان مالكا للبحر فهو مالك لما فيه.

ثم انظر يا صاحبي إلى هذه المنسوجات والأقمشة الملونة المزدانة بالأزهار. إنها تُصنع من مادة واحدة. فالذي هيَّأ تلك المادة وغَزَلها لابد أنه واحد، لأن تلك الصنعة لا تقبل الاشتراك، فالمنسوجات المتقنة تخصّه هو. ثم التفت إلى هذا: إن أجناس هذه المنسوجات موجودة في كل جزء من أجزاء هذا العالم العجيب وقد

---

[١٤] إشارة إلى عناصر الهواء والماء التي تؤدي وظائف مهمة شتى، وتمد كل محتاج بإذن الله وتنتشر في كل مكان بأمر الله فتهيئ لوازم الحياة لذوي الحياة، وهي الأصل في خيوط نقش المصنوعات الإلهية. (المؤلف)

انتشرت انتشارا واسع النطاق حتى إنها تُنسَج معا وبتداخل في آن واحد وبنمط واحد في كل مكان. أي إنه فعلُ فاعلٍ واحد، فالجميع يتحرك بأمرٍ واحد. وإلّا فمحال أن يكون هناك انسجام تام وتوافق واضح في العمل وفي آن واحد وبنمط واحد وبنوعية واحدة وهيأة واحدة في جميع الأنحاء، لذا فإن كل ما هو متقن الصنع يدل دلالة واضحة على ذلك الفاعل الذي لا نراه، بل كأنه يعلن عنه صراحةً، بل كأن كل نسيج مغرز بالزهور، وكل ماكنة بديعة، وكل مأكول لذيذ، إنما هو علامة الصانع المعجِز وخاتمه وآيته وطغراؤه فكل منه يقول بلسان الحال: «مَن كنتُ أنا مصنوعُه، فموضعي الذي أنا فيه مُلكُه». وكل نقش يقول: «مَن قام بنسجي ونقشي فلفيف القماش الذي أنا فيه هو منسوجُه». وكل لقمة لذيذة تقول: «مَن يصنعني ويُنضجني فالقِدر الذي أطبخُ فيه مُلكُه». وكل ماكنة تقول: «مَن قام بصنعي فكل ما في العالم من أمثالي مصنوعُه وهو مالكه. أي مَن كان مالكا للمملكة والقصر كله فهو الذي يمكنه أن يَملِكَنا». وذلك بمثـل مَن أراد أن يدّعي تملّك أزرار البزة العسكرية ووضع شعار الدولة عليها لابد أن يكون مالكا لمصانعها كلها حتى يكون مالكا حقيقيا، وإلا فليس له إلّا الادعاء الكاذب، بل يعاقب على عمله ويُؤاخذ على

كلامه.

الخلاصة: كما أن عناصر هذه المملكة مواد منتشرة في جميع أرجائها فمالكُها إذن واحد يملك ما في المملكة كلها، كذلك المصنوعات المنتشرة في أرجاء المملكة لأنها متشابهة تُظهِر علامة واحدة وناموسا واحدا، فجميعُها إذن تدل على ذلك الواحد المهيمن على كل شيء.

فيا صديقي! إن علامة الوحدة ظاهرة في هذا العالم، وآية التوحيد واضحة بيّنة، ذلك لأن قسما من الأشياء رغم أنه واحد فهو موجود في العالم كله، وقسم آخر رغم تعدد أشكاله فإنه يُظهِر وحدةً نوعيةً مع أقرانه لتشابهه وانتشاره في الأرجاء، وحيث إن الوحدةَ تدل على الواحد كما هو معلوم، لذا يلزم أن يكون صانع هذه الأشياء ومالكها واحدا أحدا. زد على هـذا فإنك ترى أنها تُقدَّم إلينا هـدايا ثمينة من وراء ستار الغيب، فتتدلى منه خيوط وحبال[١٥] تحمل ما هو أثمن من الماس والزمرد من الآلاء

[١٥] الحبل إشارة إلى الشجرة المثمرة، والخيوط الرفيعة إشارة إلى أغصانها، أما الهدايا والمرصعات، فهي إشارة إلى أنواع الأزهار وأضراب الثمار. (المؤلف)

والإحسان.

إذن فقدّر بنفسك مدى بلاهة مَن لا يعرف الذي يدير هذه الأمور العجيبة ويقدّم هذه الهدايا البديعة؟ قدّر مدى تعاسة مَن لا يؤدي شكرَه عليها! إذ إن جهلَه به يُرغمه على التفوّه بما هو من قبيل الهذيان، فيقول -مثلا-: إن تلك اللآلئ المرصعات تَصنعُ نفسها بنفسها!. أي يُلزمه جهلُه أن يمنح معنى السلطان لكل حبلٍ من تلك الحبال! والحال أننا نرى أن يدا غيبية هي التي تمتد إلى تلك الحبال فتصنعها وتقلدها الهدايا. أي إن كل ما في هذا القصر يدل على صانعه المبدع دلالة أوضح من دلالته على نفسه. فإن لم تعرفه يا صاحبي حق المعرفة فستهوي إذن في درك أحط من الحيوانات، لأنك تضطر إلى إنكار جميع هذه الأشياء.

البرهان التاسع

أيها الصديق الذي يُطلق أحكامه جزافا، إنك لا تعرف مالكَ هذا القصر ولا تَرغب في معرفته، فتستبعد أن يكون له مالك، وتنساق إلى إنكار أحواله لعَجز عقلك عن أن يستوعب هذه المعجزات الباهرة والروائع البديعة، مع أن الاستبعاد الحقيقي، والمشكلات العويصة والصعوبات الجمّة في منطق العقل

إنما هو في عدم معرفة المالك والذي يُفضي بك إلى إنكار وجود هذه المواد المبذولة لك، بأثمانها الزهيدة ووفرتها العظيمة. بينما إذا عرفناه يكون قبول ما في هذا القصر، وما في هذا العالم سهلا ومستساغا ومعقولا جدا، كأنه شيء واحد، إذ لو لم نعرفه ولولاه، لكان كل شيء عندئذٍ صعبا وعسيرا بل لا ترى شيئا مما هو متوفر ومبذول أمامك. فإن شئت فانظر فحسب إلى عُلَب المُربيات[١٦] المتدلية من هذه الخيوط. فلو لم تكن من إنتاج مطبخ تلك القدرة المعجزة، لما كان باستطاعتك الحصول عليها ولو بأثمان باهظة.

نعم، إن الاستبعاد والمشكلات والصعوبة والهلاك والمحال إنما هو في عدم معرفته، لأن إيجاد ثمرة -مثلا- يكون صعبا ومشكلا كالشجرة نفسها فيما إذا رُبط كلُّ ثمرة بمراكز متعددة وقوانين مختلفة، بينما يكون الأمر سهلا مستساغا إذا ما كان إيجاد الثمرة بقانون واحد ومن مركز واحد فيكون إيجاد آلاف الأثمار كإيجاد ثمرة واحدة. مَثلُه في هذا كمثل تجهيز الجيش بالعتاد، فإن

---

[١٦] معلبات المربيات، إشارة إلى البطيخ والشمام والرمان وغيرها من معلبات القدرة الإلهية، وكل ذلك هدايا الرحمة الإلهية. (المؤلف)

كان من مصدرٍ واحد وبقانون واحد ومن معمل واحد، فالأمر سهل ومستساغ عقلا. بينما إذا جُهّز كلُّ جندي بقانون خاص ومن مصدر خاص ومن معمل يخصه، فالأمر صعب ومُشكل جدا، بل سيحتاج ذلك الجندي حينئذٍ إلى مصانع عتاد ومراكز تجهيزات وقوانين كثيرة بعدد أفراد جيش كامل.

فعلى غِرار هذين المثالين، فإن إيجاد هذه الأشياء في هذا القصر العظيم والمدينة الرائعة، وفي هذه المملكة الراقية والعالم المهيب إذا ما أسند إلى واحدٍ أحد فإن الأمر سهل ومستساغ حيث يكون ما نراه من وفرة الأشياء وكثرتها واضحا، بينما إن لم يُسند الأمر إليه يكون إيجاد أي شيء كان عسيرا جدا، بل لا يمكن إيجاده أصلا حتى لو أعطيت الدنيا كلها ثمنا له.

البرهان العاشر

أيها الصديق ويا من يتقرب شيئا فشيئا إلى الإنصاف.. فها نحن هنا منذ خمسة عشر يوما،[١٧] فإن لم نعرف أنظمة هذه البلاد

---

(١٧) إشارة إلى سن التكليف البالغ خمس عشرة سنة. (المؤلف)

وقوانينها ولم نعرف مليكها فالعقاب يحق علينا، إذ لا مجال لنا بعدُ للاعتذار. فلقد أمهلونا طوال هذه الأيام، ولم يتعرضوا لنا بشيء. إلّا أننا لا شك لسنا طلقاء سائبين، فنحن في مملكة رائعة بديعة فيها من الدقّة والرقة والعبرة في المصنوعات المتقنة ما ينمّ عن عظمة مليكها، فلابد أن جزاءه شديد أيضا. وتستطيع أن تفهم عظمة المالك وقدرته من هذا:

إنه ينظّم هذا العالم الضخم بسهولة تنظيم قصر منيف، ويدير أمورَ هذا العالم العجيب بيسر إدارة بيتٍ صغير، ويملأ هذه المدينة العامرة بانتظام كامل دون نقص ويخلّيها من سكانها بحكمة تامة بمثل سهولة مِلءَ صحن وإفراغه. وينصب الموائد الفخمة المتنوعة[١٨] ويُعد الأطعمة اللذيذة بكمال كرمه بيد غيبية ويفرشها من أقصى العالم إلى أقصاه ثم يرفعها بسهولة وضع سُفرة الطعام ورفعها. فإن كنت فطنا فستفهم أن هذه العظمة والهيبة لابد أنها

---

[١٨] إشارة إلى وجه الأرض في الربيع والصيف حيث تخرج أطعمة لذيذة متنوعة من مطبخ الرحمة الإلهية وتُنصَب موائد النعم المتنوعة المختلفة وتجدد باستمرار، فكل بستان مطبخ، وكل شجرة خادم المطبخ. (المؤلف)

تنطوي على كرم لا حدَّ له وسخاء لا حدود له.

ثم انظر كما أن هذه الأشياء شاهدةُ صدقٍ على عظمة المالك القدير وعلى هيمنته، وعلى أنه سلطان واحد أحد، كذلك القوافل المتعاقبة والتحولات المترادفة دليل على دوام ذلك السلطان وبقائه، لأن الأشياء الزائلة إنما تزول معها أسبابُها أيضا. فالأشياء والأسباب تزولان معا، بينما التي تعقبها تأتي جديدة ولها آثار كسابقتها، فهي إذن ليست من فعل تلك الأسباب، بل ممن لا يطرأ عليه الزوال! فكما أن بقاءَ اللمعان والتألّق -بعد زوال حَباب النهر الجاري- في التي تعقبها من الحباب، يفهّمنا أن هذا التألق ليس من الحباب الزائلة بل من مصدر نور دائم، كذلك تبدّل الأفعال بالسرعة المذهلة، وتلوّن التي تعقبها وانصباغها بصفاتها يدلنا على أن تلك الأفعال إنما هي تجلياتُ مَن هو دائم لا يزول وقائم لا يحول. والأشياء جميعا نقوشُه ومراياه وصنعتُه ليس إلّا.

البرهان الحادي عشر

تعالَ أيها الصديق لأبيّن لك برهانا يملك من القوة ما للبراهين العشرة السابقة. دعنا نتأهب لسفرة بَحرية، سنركب

سفينة[19] لنذهب إلى جزيرة بعيدة عنا. أتعلم لماذا نذهب إليها؟. إن فيها مفاتيح ألغاز هذا العالَم ومغاليق أسراره وأعاجيبه. ألا ترى أنظار الجميع محدقة بها، ينتظرون منها بلاغا ويتلقون منها الأوامر.. فها نحن نبدأ بالرحلة.. وها قد وصلنا إليها ووطئت أقدامُنا أرضَ الجزيرة.. نحن الآن أمام حشد عظيم من الناس وقد اجتمع أشراف المملكة جميعُهم هنا.. أمعِن النظرَ يا صديقي إلى رئيس الاجتماع المهيب.. هلّا نتقرب إليه قليلا فنعرفه عن كثب.. فها هو ذا متقلّد أوسمةً راقية تزيد على الألف[20] ويتحدث بكلام

---

[19] السفينة إشارة إلى التاريخ، والجزيرة إشارة إلى خير القرون وهو قرن السعادة النبوية. فإذا خلعنا ما ألبَسَتنا الحضارةُ الدنيّة من ملابسَ على ساحل هذا العصر المظلم، والقينا أنفسنَا في بحر الزمان، وركبنا سفينة كُتب التاريخ والسيرة =الشريفة ووصلنا إلى ساحل جزيرة عصر السعادة والنور، وبلغنا الجزيرة العربية، وحظينا بالرسول الكريم ﷺ وهو يزاول مهمة النبوّة المقدسة، عند ذلك نعلم أن ذلك النبي ﷺ إنما هو برهان باهر للتوحيد ودليل ساطع عليه بحيث نوّرَ سطح الأرض جميعا، وأضاء وجهَي الزمان الماضي والمستقبل ومحا ظلمات الكفر والضلالة. (المؤلف)

[20] إشارة إلى المعجزات التي أظهرها الرسول الكريم ﷺ وهي ثابتة عند أولى العلم والتحقيق. (المؤلف)

مِلؤُه الطيب والثقة والاطمئنان. وحيث إني كنت قد تعلمت شيئا مما يقـول خلالَ خمسة عشر يوما السابقة فسوف أعلّمك إياه.. إنه يتحدث عن سلطان هذه المملكة ذي المعجزات ويقول: إنه هو الذي أرسله إليكم. انظر إنه يُظهر خوارق عجيبة ومعجزات باهرة بحيث لا يدع شبهة في أنه مُرسَل خصيصا من لدن السلطان العظيم. اصغِ جيدا إلى حديثه وكلامه، فجميعُ المخلوقات آذان صاغية له، بل المملكة برمّتها تصغي إليه، حيث الجميع يسعون إلى سماع كلامه الطيب ويتلهفون لرؤية محياه الزاهر. أوَ تظن أن الإنسان وحده يصغي إليه فحسب؟ بل الحيوانات أيضا، بل حتى الجبال والجمادات تصغي لأوامره وتهتز من خشيتها وشوقها إليه. انظر إلى الأشجار كيف تنقاد إلى أوامره وتذهب إلى ما أشار إليه من مواضع، إنه يفجّر الماء أينما يريد، بل حتى من بين أصابعه، فيرتوي الناس من ذلك الماء الزلال. انظر إلى ذلك المصباح المتدلي من سقف المملكة[٢١] إنه ينشقّ إلى شقين اثنين بمجرد إشارة منه.

---

[٢١] إشارة إلى القمر، ومعجزة شق القمر. فقد قال مولانا جامي: إن ذلك الأمي الذي لم يكتب في حياته شيئا غير ما كتبه بإصبعه حرف ألف على صحيفة السماء فشق به القمر شقين.... (المؤلف)

فكأن هذه المملكة وبما فيها تعرفه جيدا وتعلم يقينا أنه موظف مُرسل بمهمة من لدن السلطان، ومبلّغ أمين لأوامره الجليلة. فتراهم ينقادون له انقياد الجندي المطيع. فما من راشد عاقل ممن حوله إلّا ويقول إنه رسول كريم، ويصدقونه ويذعنون لكلامه، ليس هذا فحسب بل يصدّقه ما في المملكة من الجبال والمصباح العظيم.[٢٢] والجميع يقولون بلسان الحال وبخضوع: نعم.. نعم إن كل ما ينطق به صدق وعدل وصواب..

فيا أيها الصديق الغافل! هل ترى أنه يمكن أن يكون هناك أدنى احتمال لكذبٍ أو خداع في كلام هذا الكريم؟ حاش لله أن يكون من ذلك شيء من كلامه أبدا. وهو الذي أكرمه السلطان بألفٍ من الأنواط والشارات، وهي علامات تصديقه له، وجميعُ أشراف المملكة يصدّقونه، وكلامُه كله ثقة واطمئنان، فهو يبحث في أوصاف السلطان المعجِز وعن أوامره البليغة. فإن كنت تجد في

---

[٢٢] إشارة إلى الشمس التي رجعت عن المغيب بعودة الأرض من المشرق، فشوهدت من جديد، وبناء على هذه المعجزة أدّى الإمام علي رضي الله عنه صلاة العصر التي كادت تفوته، وذلك بسبب نوم الرسول ﷺ على فخذه. (المؤلف)

نفسك شيئا من احتمال الكذب، فيلزم عليك أن تكذّب كل الجماعات المصدّقة به، بل تنكر وجود القصر والمصابيح وتنكر وجود كل شيء وتكذّب حقيقتَهم، وإلّا فهاتِ ما عندك إن كان لديك شيء، فالدلائل تتحدى.

البرهان الثاني عشر

أيها الأخ لعلك استرشدتَ بما قلنا شيئا فشيئا. فسأبين لك الآن برهانا أعظم من جميع البراهين السابقة.

انظر إلى هذه الأوامر السلطانية النازلة من الأفق الأعلى، الجميع يوقرونها وينظرون إليها بإجلال وإعجاب، وقد وقف ذلك الشخص الكريم المجلل بالأوسمة بجانب تلك الأوامر النورانية[٢٣] ويفسّر للحشود المجتمعة معاني تلك الأوامر. انظر إلى أسلوب الأوامر أنه يشع ويسطع حتى يسوق الجميع إلى الإعجاب والتعظيم. إذ يبحث في مسائل جادّة تهمّ الجميع بحيث لا يدع أحدا إلّا ويصغي إليه. إنه يفصّل تفصيلا كاملا شؤون السلطان

---

[٢٣] إشارة إلى القرآن الكريم والعلامة الموضوعة عليه إشارة إلى إعجازه. (المؤلف)

وأفعاله وأوامره وأوصافه. فكما أن على تلك الأوامر السلطانية طغراء السلطان نفسه فعلى كل سطر من سطورها أيضا شارته، بل إذا أمعنت النظرَ فعلى كل جملة بل كل حرف فيها خاتمه الخاص فضلا عن معانيها ومراميها وأوامرها ونواهيها.

الخلاصة: إن تلك الأوامر السلطانية تدل على ذلك السلطان العظيم كدلالة الضوء على النهار.

فيا أيها الصديق: أظنك قد عُدت إلى صوابك وأَفَقْت من نوم الغفلة، فإنّ ما ذكرناه لك وبسطناه من براهين لكافٍ ووافٍ. فإن بدا لك شيء فاذكره.

فما كان من ذلك المعاند إلّا أن قال:

لا أقول إلّا: الحمد لله، لقد آمنت وصدقت، بل آمنت إيمانا واضحا أبلجَ كالشمس وكالنهار، ورضيت بأن لهذه المملكة ربّا ذا كمال، ولهذا العالَم مولى ذا جلال، ولهذا القصر صانعا ذا جمال. ليرضَ الله عنك يا صديقي الحميم فقد أنقذتني من إسار العناد والتعصب الممقوت الذي بلغ بي حدَّ الجنون والبلاهة، ولا أكتمك يا أخـي، فإن ما سقـتَه من براهـين، كلُّ واحد منها كان برهانا كافيا ليوصلني إلى هذه النتيجة، إلّا أنني كنت أصغي إليك لأن

كل برهان منها قد فتح آفاقا أرحبَ ونوافذ أسطعَ إلى معرفة الله وإلى محبته الخالصة.

وهكذا تمت الحكاية التي كانت تشير إلى الحقيقة العظمى للتوحيد والإيمان بالله.

وسنبين في المقام الثاني بفضل الرحمن وفيض القرآن الكريم ونور الإيمان، مقابل ما جاء من اثنى عشر برهانا في الحكاية التمثيلية اثنتي عشرة لمعة من لمعات شمس التوحيد الحقيقي بعد أن نمهّد لها بمقدمة.

نسأل الله التوفيق والهداية.

المقام الثاني

من الكلمة الثانية والعشرين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الزمر:٦٢-٦٣)

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

(يس:٨٣)

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾

(الحجر:٢١)

﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

(هود:٥٦)

المقدمة

لقد بيّنا إجمالا في رسالة «قطرة من بحر التوحيد» قطبَ أركان الإيمان وهو «الإيمان بالله». وأثبتنا أن كل موجود من الموجودات يدل علـى وجوب وجود الله سبحانه ويشهد على وحدانيته بخمسة وخمسين لسانا. وذكرنا كذلك في رسالة «نقطة من نور معرفة الله جلَّ جلالُه» أربعة براهين كليّة على وجوب وجوده سبحانه ووحدانيته، كلٌّ برهان منها بقوة ألف برهان. كما ذكرنا مئات من البراهين القاطعة التي تبيّن وجوبَ وجوده سبحانه ووحدانيته فيما يقرُب من اثنتي عشرة رسالة باللغة العربية، لذا نكتفي بما سبق ولا ندخل في تفاصيل دقيقة، إلّا أننا نسعى في هذه «الكلمة الثانية والعشرين» لإظهار «اثنتي عشرة» لمعة من شمس «الإيمان بالله» تلك التي ذكرتُها إجمالا في رسائل النور.

اللمعة الأولى

التوحيد توحيدان، لنوضح ذلك بمثال:

إذا وردتْ إلى سوقٍ أو إلى مدينة بضائع مختلفة وأموال متنوعة لشخص عظيم، فهذه الأموال تُعرف مُلكيتها بشكلين اثنين:

الأول: شكل إجمالي عامي (أي لدى العامة من الناس) وهو: «أن مثل هذه الأموال الطائلة ليس بمقدورِ أحدٍ غيره أن يمتلكها». ولكن ضمن نظرة الشخص العامي هذه يمكن أن يحدث اغتصاب، فيدّعي الكثيرون امتلاكَ قِطَعها.

الثاني: أن تُقرأ الكتابةُ الموجودة على كل رزمة من رزم البضاعة، وتُعرف الطغراءُ الموجودة على كل طَول، ويُعلم الختمُ الموجود على كل مَعْلم. أي كلُّ شيء في هذه الحالة يدل ضمنا على ذلك المالك.

فكما أن البضاعة يُعرف مالكُها بشكلين، كذلك التوحيد فإنه على نوعين:

الأول: التوحيد الظاهري العامي: وهو «أنّ الله واحد لا

شريك له ولا مثيل، وهذا الكون كلّه مُلكه».

الثاني: التوحيد الحقيقي: وهو الإيمان بيقينٍ أقربَ ما يكون إلى الشهود، بوحدانيته سبحانه، وبصدور كلِّ شيء من يد قدرته، وبأنه لا شريكَ له في ألوهيته، ولا معينَ له في ربوبيته، ولا نِدَّ له في مُلكه، إيمانا يَهبُ لصاحبه الاطمئنان الدائم وسكينة القلب، لرؤيته آيةَ قدرته وختمَ ربوبيته ونقشَ قلمه، على كل شيء. فينفتح شباك نافذ من كل شيء إلى نوره سبحانه.

وسنذكر في هذه «الكلمة» شعاعاتٍ تبيّن ذلك التوحيد الحقيقي الخالص السامي.

تنبيه ضمن اللمعة الأولى:

أيها الغافل الغارق في عبادة الأسباب! اعلم أنّ الأسباب ليست إلّا ستائرَ أمام تصرف القدرة الإلهية، لأن العزة والعظمة تقتضيان الحجاب، أما الفاعلُ الحقيقي فهو القدرة الصمدانية، لأن التوحيد والجلال يتطلبان هذا، ويقتضيان الاستقلال.

واعلم أن مأموري السلطان الأزلي وموظفيه ليسوا هم المنفّذين الحقيقيين لأمور سلطنة الربوبية، بل هم دالّون على تلك العظمة والسلطان، والداعون إليها، ومشاهدوها المعجَبون، فما

وُجدوا إلّا لإظهار عزّة القدرة الربانية وهيبتِها وعظمتها، وذلك لئلا تظهر مباشرةُ يدِ القدرة في أمور جزئية خسيسة لا يُدرِك نظرُ أكثر الغافلين حُسنَها ولا يَعرف حكمتها، فيشتكي بغير حق ويعترض بغير علم. وهم ليسوا كموظفي السلطان البشري الذي لم يعيّنهم ولم يُشركهم في سلطنته إلّا نتيجة عَجزه وحاجته.

فالأسباب إذن إنما وُضعَت لتبقى عزةُ القدرة مصونةً من جهة نظر العقل الظاهري؛ إذ إنّ لكل شيء جهتين -كوجهي المرآة- إحداهما جهةُ «المُلك» الشبيهة بالوجه المطلي الملوّن للمرآة الذي يكون موضعَ الألوان والحالات المختلفة، والأخرى جهةُ «الملكوت» الشبيهة بالوجه الصقيل للمرآة. ففي الوجه الظاهر - أي جهة المُلك- هناك حالات منافية ظاهرا لعزة القدرة الصمدانية وكمالِها، فوُضعَت الأسبابُ كي تكون مرجِعا لتلك الحالات ووسائلَ لها. أما جهةُ الملكوت والحقيقةِ فكلُّ شيء فيها شفاف وجميل وملائم لمباشرةِ يدِ القدرة لها بذاتها، وليس منافيا لعزّتها، لذا فالأسبابُ ظاهرية بحتة، وليس لها التأثير الحقيقي في الملكوتية أو في حقيقة الأمر.

وهناك حكمة أخرى للأسباب الظاهرية وهي: عدم توجيه

الشكاوى الجائرة والاعتراضات الباطلة إلى العادل المطلق جلّ وعلا. أي وُضعت الأسباب لتكونَ هدفا لتلك الاعتراضات وتلك الشكاوي، لأن التقصيرَ صادر منها ناشئ من افتقار قابليتها.

ولقد روي لبيان هذا السر مثال لطيف ومحاورة معنوية هي: أن عزرائيل عليه السلام قال لرب العزة: «إن عبادك سوف يشتكون مني ويسخطون عليّ عند أدائي لوظيفة قبض الأرواح». فقال الله سبحانه وتعالى له بلسان الحكمة: «سأضع بينَك وبين عبادي ستائرَ المصائب والأمراض لتتوجه شكاواهم إلى تلك الأسباب»[٢٤].

وهكذا، تأمل! كما أن الأمراضَ ستائرُ يَرجع إليها ما يُتوهّم من مساوئ في الأجَل، وكما أن الجمال الموجود في قبض الأرواح –

---

[٢٤] أنظر: السيوطي في الدر المنثور ج٥/ ص١٧٣ والحبائك في أخبار الملائك، ص١٢،وشرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، ص٤٦ ، و أبو نعيم في حلية الأولياء ج٥/ ص٥١ ، والقرطبي في تفسيره ج ١٤ / ص ٩٣، وتذكرة القرطبي ص٧٠ وأبو الشيخ الأصبهاني في العظمة رقم الحديث (٤٢٦).

وهو الحقيقة- يعود إلى وظيفة عزرائيل عليه السلام، فإن عزرائيل عليه السلام هو الآخر ستار، فهو ستار لأداء تلك الوظيفة وحجاب للقدرة الإلهية، إذ أصبح مرجِعا لحالات تبدو ظاهرا أنها غيرُ ذات رحمة ولا تليق بكمال القدرة الربانية.

نعم، إن العزّة والعظمة تستدعيان وضعَ الأسباب الظاهرية أمام نظر العقل، إلّا أن التوحيد والجلال يردّان أيدي الأسباب عن التأثير الحقيقي.

اللمعة الثانية

تأمَّل في بستان هذه الكائنات، وانظر إلى جِنان هذه الأرض، وأنعم النظر في الوجه الجميل لهذه السماء المتلألئة بالنجوم، تَرَ أن للصانع الجليل جلّ جلالُه ختما خاصا بمن هو صانعُ كل شيء على كل مصنوع من مصنوعاته، وعلامةً خاصةً بمن هو خالقُ كل شيء على كل مخلوق من مخلوقاته، وآيةً لا تقلَّد خاصة بسلطان الأزل والأبد على كل منشورٍ من كتابات قلم قُدرته على صحائف الليل والنهار وصفحات الصيف والربيع. سنذكر من تلك الأختام والعلامات بضعا منها نموذجا ليس إلّا.

انظر مما لا يحصى من علاماته إلى هذه العلامة التي وضعها

على «الحياة»: «إنه يخلق من شيءٍ واحد كلَّ شيء، ويخلق من كلِّ شيءٍ شيئا واحدا». فمن ماء النطفة بل من ماء الشرب، يخلق ما لا يُعد من أجهزة الحيوان وأعضائه، فهذا العمل لاشك أنه خاص بقدير مطلق القدرة.

ثم إن تحويل الأطعمة المتنوعة، سواء الحيوانية أو النباتية، إلى جسم خاص بنظام كامل دقيق، ونسج جلد خاص للكائن وأجهزة معينة من تلك المواد المتعددة لا شك أنه عملُ قدير على كل شيء وعليم مطلق العلم.

نعم، إن خالق الموت والحياة يدير الحياة في هذه الدنيا، إدارةً حكيمة بقانون أمري معجِز، بحيث لا يمكن أن يطبّق ذلك القانون وينفّذه إلّا مَن يصرّف جميعَ الكون في قبضته.

وهكذا إن لم تنطفئ جذوة عقلك ولم تفقد بصيرةَ قلبك فستفهم أنّ جعلَ الشيء الواحدِ كلَّ شيء بسهولة مطلقة وانتظام كامل، وجعلَ كلَّ شيء شيئا واحدا بميزانٍ دقيق وانتظام رائع وبمهارة وإبداع، ليس إلّا علامةً واضحة وآيةً بيّنة لخالق كلِّ شيء وصانِعه.

فلو رأيت –مثلا– أن أحدا يملك أعمالا خارقة: ينسج من

وزنِ درهمٍ من القطن مائة طَولٍ من الصوف الخالص وأطوالا من الحرير وأنواعا من الأقمشة، ورأيت أنه يُخرج -علاوة على ذلك- من ذلك القطن حلويات لذيذة وأطعمة متنوعة كثيرة، ثم رأيتَ أنه يأخذ في قبضته الحديد والحجر والعسل والدهن والماء والتراب، فيصنع منها الذهب الخالص، فستَحكم حتما أنه يملك مهارةً معجِزة تخصّه وقدرةً مهيمنة على التصرف في الموجودات، بحيث إن جميع عناصر الأرض مسخّرة بأمره، وجميعَ ما يتولد من التراب منفّذ لحكمه. فإن تعجَبْ من هذا فإن تجلي القدرةِ الإلهية وحكمتِها في «الحياة» لهو أعجبُ من هذا المثال بألف مرّة.. فإليك علامة واحدة من علامات عديدة موضوعة على الحياة.

اللمعة الثالثة

انظر إلى «ذوي الحياة» المتجولة في خضم هذه الكائنات السيالة، وبين هذه الموجودات السيارة، تَرَ أن على كل كائن حيّ، أختاما كثيرة، وضَعها الحيُّ القيوم. انظر إلى ختم واحدٍ منها:

إنّ ذلك الكائن الحيّ -وليكن هذا الإنسانَ- كأنه مثال مصغَّر للكون، وثمرة لشجرة الخِلقة، ونواة لهذا العالَم، حيث إنه جامع لمعظم نماذج أنواع العوالم. وكأن ذلك الكائن الحيّ قطرة

محلوبة من الكون كلّه، مستخلصة بموازين علمية حساسة، لذا يلزم لخلقِ هذا الكائن الحيّ، وتربيتِه ورعايتِه أن يكون الكونُ قاطبة في قبضة الخالق وتحت تصرفه. فإن لم يكن عقلُك غارقا في الأوهام، فستفهم أنّ جعلَ النحلة التي تمثل كلمةً من كلمات القدرة الربانية بمثابة فهرس مصغّر لكثير من الأشياء.. وكتابةَ أغلب مسائل كتاب الكون في كيان الإنسان الذي يمثّل صحيفةً من قدرته سبحانه.. وإدراجَ منهاج شجرة التين الضخمة في بُذيراتها التي تمثل نقطةً في كتاب القدرة.. وإراءةَ آثار الأسماء الحسنى المحيطة المتجلية على صفحات هذا الكون العظيم في قلب الإنسان الذي يمثل حرفا واحدا من ذلك الكتاب.. ودرجَ ما تضمّه مكتبة ضخمة من مفصّل حياة الإنسان في ذاكرته المتناهية في الصغر.. كلُّ ذلك دون شك، ختم يخصّ مَن هو خالق كل شيء ورب العالمين.

فلئن أظهر ختمٌ واحد، من بين أختامٍ ربانية كثيرة، على «ذوي الحياة» نورَه باهرا حتى استقرأ آياتِه قراءة واضحة، فكيف إذا استطعتَ أن تنظر إلى جميع «ذوي الحياة» وتشاهِد تلك الأختام معا، وأن تراها دفعةً واحدة، أما تقول: «**سبحان من اختفى بشدة ظُهوره**»؟

اللمعة الرابعة

انظر إلى هذه الموجودات الملوّنة الزاهية المبثوثة على وجه الأرض، وإلى هذه المصنوعات المتنوعة السابحة في بحر السماوات، تأمل فيها جيدا.. تَرَ: أنّ على كل موجود منها طغراء لا تقلّد للمنوّر الأزلي جلّ وعلا. فكما تُشاهَد على «الحياة» آياتُه وشاراتُه، وعلى «ذوي الحياة» أختامُه -وقد رأينا بعضا منها-، تُشاهَد آيات وشارات أيضا على «الإحياء»، أي منح الحياة. سننظر إلى حقيقتها بمثال، إذ المثال يقرِّب المعاني العميقة للأفهام:

إنه يشاهَد على كل من السيارات السابحة في الفضاء، وقطرات الماء، وقطع الزجاج الصغيرة، وبلورات الثلج البراقة.. طغراء لصورة الشمس وختم لانعكاسها، وأثر نوراني خاص بها، فإن لم تقبل أن تلك الشُمَيسات المشرقة على الأشياء غير المحدودة، هي انعكاسات نور الشمس وتجلّيها، فستضطر أن تقبل بوجود شمس بالأصالة في كل قطرة، وفي كل قطعة زجاجٍ معرّضة للضوء، وفي كل ذرة شفافة تقابل الضوء، مما يلزم ترديك في منتهى البلاهة ومنتهى الجنون!

وهكذا، فلله سبحانه وهو نورُ السماوات والأرض تجليات

نورانية، من حيث «الإحياءُ» وإفاضةُ الحياة، فهو آية جلية وطغراء واضحة يضعها سبحانه على كل ذي حياة، بحيث لو افتُرض اجتماعُ جميع الأسباب وأصبح كلُّ سبب فاعلا مختارا فلن تستطيع منحَ حياةٍ لموجود. أي إنها تعجَز عَجزا مطلقا عن أن تقلّد الختمَ الرباني في الإحياء. ذلك لأن كل ذي حياة هو بحدّ ذاته معجزة من معجزات القدرة الإلهية، إذ هو على صورة نقطة مركزية «كالبؤرة» لتجليات الأسماء الحسنى، التي كلّ منها بمثابة شعاع من نوره سبحانه. فلو لم يُسنَد ما يشاهَد على الكائن الحيّ من صنعةٍ بديعة في الصورة، وحكمةٍ بالغة في النظام، وتجلٍّ باهر لسر الأحدية، إلى الأحد الصمد جلّ جلالُه، للزم قبولَ قدرةٍ فاطرة مطلقة غير متناهية مستترة في كل ذي حياة، ووجود علمٍ محيط واسع فيه، مع إرادةٍ مطلقة قادرةٍ على إدارة الكون، بل يجب قبول وجود بقية الصفات التي تخص الخالق سبحانه في ذلك الكائن، حتى لو كان الكائن الحي ذبابة أو زهرة! أي إعطاء صفات الألوهية لكل ذرة من ذرات أي كائن! أي قبولُ افتراضاتٍ محالة من أمثال هذه الافتراضات التي توجب السقوطَ إلى أدنى بلاهات الضلالة وحماقات الخرافة! ذلك لأنه سبحانه وتعالى قد أعطى لذرات كل شيء -لا سيما إذا كانت من أمثال البذرة والنواة- وضعا معينا،

كأنّ تلك الذرة تنظر إلى ذلك الكائن الحي كله -رغم أنها جزء منه- وتتخذ موقفا معينا وفق نظامه، بل تتخذ هيئة خاصة بما يفيد دوام ذلك النوع، وانتشاره ونصب رايته في كل مكان، وكأنها تتطلع إلى جميع أنواع ذلك الكائن في الأرض -فتزود البذرة مثلا بما يشبه جُنيحات لأجل الطيران والانتشار- ويتخذ ذلك الكائن الحيّ موقفا يتعلق بجميع موجودات الأرض التي يحتاجها لإدامة حياته وتربيته ورزقه ومعاملاته. فإن لم تكن تلك الذرةُ مأمورةً من لدن قدير مطلق القدرة، وقُطِعت نسبتُها من ذلك القدير المطلق، لزم أن يُعطى لها بصر تبصر به جميع الأشياء، وشعور يحيط بكل شيء!!.

حاصل الكلام: كما أنه لو لم تُسنَد صُور الشُميسات المشرقة وانعكاسات الألوان المختلفة في القطرات وقطع الزجاج إلى ضوء الشمس، ينبغي عندئذٍ قبول شموس لا تُحصى بدلا من شمس واحدة. مما يقتضي التسليم بخرافة محالة؛ كذلك لو لم يُسند خلقُ كل شيء إلى القدير المطلق، للزم قبولُ آلهة غير متناهية بل بعدد ذرات الكون بدلا من الله الواحد الأحد سبحانه. أي قبولُ محال بدرجة مائة محال، أي ينبغي السقوط إلى هذيان الجنون.

نخلص من هذا: أن هناك في كل ذرة ثلاثةَ شبابيك نافذة مفتّحة إلى نور وحدانية الله جلّ جلالُه وإلى وجوب وجوده سبحانه وتعالى:

النافذة الأولى:

إن كل ذرة كالجندي، الذي له علاقة مع كل دائرة من الدوائر العسكرية أي مع رهطه وسريته وفَوجه ولوائه وفرقته وجيشه، وله حسب تلك العلاقة وظيفة هناك، وله حسب تلك الوظيفة حركة خاصة ضمن نطاق نظامها. فالذرة الجامدة الصغيرة جدا، التي هي في بؤبؤ عينك لها علاقة معينة ووظيفة خاصة، في عينك ورأسك وجسمك، وفي القوى المولدة والجاذبة والدافعة والمصورة، وفي الأوردة والشرايين والأعصاب، بل لها علاقة حتى مع نوع الإنسان.

فوجود هذه العلاقات والوظائف للذرة، يدلّ بداهة لذوي البصائر على أن الذرة إنما هي أثر من صنعِ القدير المطلق، وهي مأمورة موظّفة تحت تصرفه سبحانه وتعالى.

النافذة الثانية:

إنّ كلّ ذرة من ذرات الهواء تستطيع أن تزور أيةَ زهرة أو ثمرة كانت، وتتمكن من الدخول والعمل فيها، فلو لم تكن الذرةُ مأمورةً مسخّرة من لدن القدير المطلق البصير بكل شيء، للزم أن تكون تلك الذرةُ التائهة عالمةً بجميع أجهزة الأثمار والأزهار وبكيفيات بنائها، ومدركةً صنعتها الدقيقة المتباينة، ومحيطةً بنسج وتفصيل ما قدّ عليها من صوَر وأشكال، ومتقنةً صناعة نسيجها إتقانا تاما!!

وهكذا تشع هذه الذرة شعاعا من شعاعات نور التوحيد كالشمس وضوحا.. وقس الضوء على الهواء، والماء على التراب حيث إن منشأ الأشياء من هذه المواد الأربعة. وقس ما في العلوم الحاضرة من مولد الماء ومولد الحموضة (الأوكسجين والهيدروجين) والآزوت والكاربون على تلك العناصر المذكورة.

النافذة الثالثة:

يمكن أن تكون كتلة من التراب المركّب من ذرات دقيقة منشأً ومصدرا لنموّ أيٍّ نبات من النباتات المزهرة والمثمرة الموجودة في الأرض كافة، فيما لو وُضعت فيها بُذيراتُها الدقيقة،

تلك البذيرات المتشابهة -كالنُطف- والمركبة من الكربون وآزوت وأوكسجين وهيدروجين، فهي متماثلة ماهيةً، رغم أنها مختلفة نوعيةً، حيث أودع فيها بقلم القَدَر، برنامجُ أصلها الذي هو معنوي بحت. فإذا ما وضعنا بالتعاقب تلك البذور في سندانة، فستنمو كلُّ بذرة بلا ريب بشكل يُبرز أجهزتَها الخارقة وأشكالَها الخاصة وتراكيبها المعينة. فلو لم تكن كلُّ ذرة من ذرات التراب مأمورةً وموظفة ومتأهبة للعمل تحت إمرة عليم بأوضاع كل شيء وأحواله، وقديرٍ على إعطاء كل شيء وجودا يليق به ويديمه، أي لو لم يكن كلُّ شيء مسخرا أمام قدرته سبحانه، للزم أن تكون في كل ذرة من ذرات التراب، مصانعُ ومكائنُ ومطابع معنوية، بعدد النباتات، كي تُصبح منشأً لتلك النباتات ذات الأجهزة المتباينة والأشكال المختلفة!.. أو يجب إسنادُ علمٍ يحيط بجميع الموجودات إلى كل ذرة، وقدرةٍ تقدر على القيام بعمل جميع الأجهزة والأشكال فيها، كي تكون مصدرا لجميعها!!

أي إنه إذا ما انقطع الانتساب إلى الله سبحانه وتعالى، ينبغي قبولُ وجود آلهة بعدد ذرات التراب!! وهذه خرافة مستحيلة في ألف محال ومحال. بينما الأمر يكون مستساغا عقلا وسهلا ومقبولا عندما تُصبح كل ذرة مأمورة، إذ كما أن جنديا اعتياديا

لدى سلطان عظيم يستطيع -باسم السلطان واستنادا إلى قوته- أن يقوم بتهجير مدينة عامرة من أهلها، أو يصلَ بين بحرين واسعين، أو يأسر قائدا عظيما، كذلك تستطيع بعوضة صغيرة أن تطرح نمرودا عظيما على الأرض، وتستطيع نملة بسيطة أن تدمّر صرح فرعون، وتستطيع بذرةُ تين صغيرة جدا أن تحمل شجرة التين الضخمة على ظهرها. كل ذلك بأمر سلطان الأزل والأبد وبفضل ذلك الانتساب.

وكما رأينا هذه النوافذ الثلاث المفتحة على نور التوحيد في كل ذرة. ففيها أيضا شاهدان صادقان آخران على وجود الصانع سبحانه وتعالى وعلى وحدانيته.

أولهما: هو حملُ الذرةِ على كاهلها وظائفَ عظيمة جدا ومتنوعة جدا، مع عَجزها المطلق.

والآخر: هو توافق حركاتها بانتظام تام وتناسقها مع النظام العام، حتى تبدو وكأن فيها شعورا عاما كليا مع أنها جماد. أي إن كل ذرة تشهد بلسان عَجزها على وجود القدير المطلق، وتشهد بإظهارها الانسجامَ التام مع نظام الكون العام على وحدانية الخالق سبحانه وتعالى.

وكما أن في كل ذرة شاهدين على أن الله واجبُ الوجود وواحد، كذلك في كل «حي» له آيتان على أنه «أحد صمد».

نعم، ففي كل حيّ هناك آيتان:

إحداهما: آيةُ الأحدية.

والأخرى: آيةُ الصمدية.

لأن كلَّ «حيّ» يُظهر تجليّات الأسماء الحسنى، المشاهَدة في أغلب الكائنات، يُظهرها دفعةً واحدة في مرآته، وكأنه نقطة مركزية -كالبؤرة- تبيّن تجلي اسم الله الأعظم. «الحي القيوم». أي إنه يحمل آيةَ الأحدية بإظهاره نوعا من ظل أحدية الذات تحت ستار اسم المحيي.

ولما كان الكائن الحيّ بمثابة مثال مصغّر للكائنات، وبمثابة ثمرةٍ لشجرة الخليقة، فإن إحضار حاجاته المترامية في الكائنات إلى دائرة حياته الصغيرة جدا، بسهولة كاملة، وبدفعة واحدة، يُبرز للعيان آيةَ الصمدية ويبيّنها، أي إن هذا الوضع يبيّن أن لهذا الكائن الحيّ ربّا -نِعمَ الرب- بحيث إن توجّها منه إليه يُغنيه عن كل شيء، ونظرةً منه إليه تكفيه عن جميع الأشياء، ولن يحلّ جميعُ الأشياء محلَّ توجهٍ واحدٍ منه سبحانه.

«نعم يكفي لكل شيءٍ شيء عن كل شيءٍ، ولا يكفي عنه كلُّ شيءٍ ولو لشيءٍ واحد».

وكذا يبيّن ذلك الوضع أن ربّه ذاك -جلّ شأنه- كما انه ليس محتاجا إلى شيء أيّا كان، فان خزائنه لا ينقص منها شيء أيضا، ولا يصعب على قدرته شئ.. فإليك مثالا من آيةٍ تُظهر ظل الصمدية. أي، إن كل ذي حياة يرتّل بلسان الحياة: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾.

هذا وإن هناك عدة نوافذ مهمة أخرى عدا ما ذكرناه قد أختُصرت هنا فيما فُصلت في أماكن أخرى. فما دامت كلُّ ذرة من ذرات هذا الكون تفتح ثلاث نوافذ، وكُوّتين، والحياة نفسُها تفتح بابين دفعة واحدة إلى وحدانية الله سبحانه، فلابدّ أنك تستطيع الآن قياس مدى ما تنشره طبقاتُ الموجودات، من الذرات إلى الشمس، من أنوار معرفة الله ذي الجلال.. فافهم من هذا سعةَ درجات الرقي المعنوي في معرفة الله سبحانه ومراتبَ الاطمئنان والسكينة القلبية، وقس عليها.

اللمعة الخامسة

من المعلوم أنه يكفي لإخراج كتابٍ ما، قلم واحد إن كان

مخطوطا. وتلزم أقلام عديدة بعدد حروفه إن كان مطبوعا، أي حروف معدنية عديدة. ولو كُتب معظمُ ما في الكتاب في بعض حروفه بخط دقيق جدا -ككتابة سورة يس مصغّرة في لفظ يس- فيلزم عندئذٍ أن تكون جميعُ الحروف المعدنية مصغّرة جدا لطبع ذلك الحرف الواحد.

فكما أن الأمر هكذا في الكتاب المستنسخ أو المطبوع؛ كذلك كتاب الكون هذا، إذا قلتَ إنه كتابةُ قلمِ قدرة الصمد، ومكتوبُ الواحد الأحد، فقد سلكتَ إذن طريقا سهلةً بدرجة الوجوب، ومعقولةً بدرجة الضرورة. ولكن إذا ما أسندتَه إلى الطبيعة وإلى الأسباب، فقد سلكتَ طريقا صعبة بدرجة الامتناع، وذات إشكالات عويصة بدرجة المحال، وذات خرافات لاشك فيها؛ إذ يلزم أن تنشئ الطبيعةُ في كل جزءِ تراب، وفي كل قطرةِ ماء، وفي كل كتلةِ هواء ملايينَ الملايين من مطابع معدنية، وما لا يحد من مصانع معنوية، كي يُظهرَ كلّ جزءٍ من تلك الأجزاء وينشئَ ما لا يعدّ ولا يُحصى من النباتات المزهرة والمثمرة.. أو تضطر إلى قبول وجود علمٍ محيط بكل شيءٍ، وقوةٍ مقتدرة على كل شيء في كل منها، كي يكون مصدرا حقيقيا لهذه المصنوعات؛ لأن كل جزءٍ من أجزاء التراب والماء والهواء يمكن أن يكون منشأً لأغلب النباتات.

والحال أنّ تركيب كلّ نباتٍ منتظمٌ، وموزون، ومتمايز، ومختلف نوعا، فكلّ منه إذن بحاجة إلى معمل معنوي خاص به وحده وإلى مطبعة تخصّه هو فقط. فالطبيعة إذن إذا خرجت عن كونها وحدةَ قياسٍ للموجودات إلى مصدرٍ لوجودها، فما عليها إلّا إحضار مكائنِ جميع الأشياء في كل شيء!!.

وهكذا فإن أساس فكرة عبادة الطبيعة هذه خرافة -بئست الخرافة- حتى الخرافيون أنفسهم يخجلون منها. فتأمل في أهل الضلالة الذين يَعدّون أنفسَهم عقلاء كيف تمسكوا بفكرة غير معقولة بالمرّة.. ثم اعتبر!!.

الخلاصة: إنّ كل حرف في أيِّ كتاب كان، يُظهر نفسَه بمقدار حرف، ويدل على وجوده بصورة معينة، إلّا أنه يعرّف كاتبَه بعشر كلمات، ويدل عليه بجوانب عديدة، فيقول مثلا: إن كاتبي خطه جميل، وإن قلمه أحمر، وإنه كذا وكذا..

ومثلُ ذلك كلُّ حرف من كتاب العالم الكبير هذا، يدل على ذاته بقدر جِرمه (مادته) ويُظهِر نفسَه بمقدار صورته، إلّا أنه يعرّف أسماء «البارئ المصوّر» سبحانه بمقدار قصيدة، ويُظهر تلك الأسماء الحسنى ويشير إليها بعدد أنواعه شاهدا على مسمّاه، لذا لا

ينبغي أن يزلّ إلى إنكار الخالق ذي الجلال حتى ذلك السوفسطائي الأحمق الذي يُنكر نفسَه وينكر الكون.

اللمعة السادسة

إنّ الخالق ذا الجلال كما وضع على جبين كل «فرد» من مخلوقاته وعلى جبهة كل «جزء» من مصنوعاته، آيةَ أحديته -وقد رأيتَ قسما منها في اللمعات السابقة-، فإنه سبحانه قد وضع على كل «نوع» كثيرا من آية الأحدية بشكل ساطع لامع، وعلى كل «كلٍّ» عديدا من أختام الواحدية، بل وضع على مجموع العالَم أنواعا من طغراء الوحدة. وإذا تأملنا ختما واحدا، من تلك الأختام والعلامات العديدة الموضوعة على صحيفة سطح الأرض في موسم الربيع تبين لنا ما يأتي:

إنّ البارئ المصوّر سبحانه وتعالى قد حشر ونشر أكثر من ثلاثمائة ألف نوعٍ من النباتات والحيوانات على وجه الأرض في فصل الربيع والصيف بتمييز وتشخيص بالغين، وبانتظام وتفريق كاملين رغم اختلاط الأنواع اختلاطا كاملا. فأظهر لنا آيةً واسعة ساطعة للتوحيد، واضحةً وضوح الربيع. أي إنّ إيجادَ ثلاثمائة ألفِ نموذج من نماذج الحشر بانتظام كامل عند إحياء الأرض الميتة

في موسم الربيع، وكتابةَ الأفراد المتداخلة لثلاثمائة ألف نوع مختلف على صحيفة الأرض كتابةً دون خطأ ولا سهو ولا نقص، وفي منتهى التوازن والانتظام، وفي منتهى الاكتمال، لاشك أنه آية خاصة بمَن هو قدير على كل شيء بيده ملكوت كل شيء، وبيده مقاليد كل شيء، وهو الحكيم العليم. هذه الآية من الوضوح بحيث يدركها كلُّ من له ذرة من شعور.

ولقد بيّن القرآن الكريم هذه الآية الساطعة في قوله تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الروم:٥٠)

نعم، إن قدرة الفاطر الحكيم التي أظهرت ثلاثمائة ألف نوع من نماذج الحشر في إحياء الأرض خلال بضعة أيام، لابدّ أن يكون حشرُ الإنسان لديها سهلا ويسيرا. إذ هل يصحّ أن يُقال –مثلا– لمن له خوارق بحيث يزيل جبلا عظيما بإشارة منه، هل يستطيع أن يزيل هذه الصخرة العظيمة التـي سَدّت طريقنا من هذا الوادي؟. ومثلَه كذلك، لا يجرؤ ذو عقل أن يقول بصيغة الاستبعاد للقدير الحكيم والكريم الرحيم الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام، والذي يملؤها ويفرغهما حينا بعد حين: كيف يستطيع أن

يزيل طبقةَ التراب هذه التي علينا والتي سدّت طريقنا المفروشة إلى مستضافه الخالد؟.

فهذا مثالُ آيةٍ واحدة للتوحيد، تَظهر على سطح الأرض في فصل الربيع والصيف! فتأمل إذن كيف يظهر ختمُ الواحدية بجلاء على تصريف الأمور في الربيع الهائل على سطح الأرض وهو في منتهى الحكمة والبصر؛ ذلك لأن هذه الإجراءات المشاهَدة، هي في انتظام مطلق، وخلقة تامة، وصنعة كاملة بديعة، مع أنها تجري في سعة مطلقة، ومع هذه السعة فهي تتم في سرعة مطلقة، ومع هذه السرعة فهي تردُ في سخاء مطلق. ألَا يوضّح هذا أنه ختم جليّ بحيث لا يمكن أن يمتلكه إلّا مَن يملك علما غير متناهٍ وقدرةً غير محدودة.

نعم، إننا نشاهد على سطح الأرض كافة، أن هناك خلقا وتصرفا وفعاليةً تجري في سعة مطلقة، ومع السعة تُنجَز في سرعة مطلقة، ومع السرعة والسعة يُشاهد سخاء مطلق في تكثير الأفراد، ومع السخاء والسعة والسرعة تتضح سهولة مطلقة في الأمر مع انتظامٍ مطلق وإبداع في الصنعة وامتياز تام، رغم الاختلاط الشديد والامتزاج الكامل. ويُشاهد كذلك آثار ثمينة جدا، ومصنوعات نفيسة جدا رغم الوفرة غير المحدودة، مع انسجام

كامل في نطاق واسع جدا، ودقة الصنعة وبدائعها وروعتها وهي في منتهى السهولة واليسر. فإيجاد كلّ هذا في آن واحد، وفي كل مكان، وبالطراز نفسه، وفي كل فرد، مع إظهار الصنعة الخارقة والفعالية المعجِزة، لاشك مطلقا أنه برهان ساطع وختم يخصّ مَن لا يحدّه مكان، مثلما أنه في كل مكان، حاضر وناظر رقيب حسيب، ومَن لا يخفى عليه شيء مثلما أنه لا يعجزه شيء. فخلقُ الذرات والنجوم سواءٌ أمام قدرته.

لقد أحصيتُ ذات يوم عناقيد ساق نحيفة لعنب متسلق -بغلظ إصبعين- تلك العناقيد التي هي معجزات الرحيم ذي الجمال في بستان كَرَمه. فكانت مائة وخمسة وخمسين عنقودا. وأحصيتُ حبّات عنقود واحد منها فكانت مائة وعشرين حبة. فتأملتُ وقلت: لو كانت هذه الساق الهزيلة خزانةَ ماء معسّل، وكانت تعطي ماءً باستمرار لما كانت تكفي أمام لَفح الحرارة ما تُرضعُه لمئاتِ الحبات المملوءة من شرابِ سُكّر الرحمة. والحال أنها قد لا تنال إلّا رطوبةً ضئيلة جدا. فيلزم أن يكون القائمُ بهذا العمل قادرا على كل شيء. فـ«**سبحان من تَحيَّرَ في صُنعه العقولُ**».

اللمعة السابعة

كما أنك تتمكن من رؤية أختام الأحد الصمد سبحانه، المختومةِ بها صحيفةُ الأرض، وذلك بنظرة إمعان قليلة، فارفع رأسَك وافتح عينيك، وألقِ نظرةً على كتاب الكون الكبير تَرَ أنه يقرأ على الكون كلِّه، ختمَ الوحدة بوضوح تام، بقدر عظمتِه وسعتِه؛ ذلك لأن هذه الموجودات كأجزاء معمل منتظم، وأركان قصر معظم، وأنحاء مدينة عامرة، كلُّ جزءٍ ظهير للآخر، كلُّ جزء يمدّ يدَ العون للآخر، ويجِدّ في إسعاف حاجاته. والأجزاءُ جميعا تسعى يدا بيد بانتظام تام في خدمة ذوي الحياة، متكاتفةً متساندة متوجهة إلى غاية معينة في طاعة مدبّر حكيمٍ واحدٍ.

نعم، إن دستور «التعاون» الجاري الظاهر، ابتداءً من جري الشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار وترادف الشتاء والصيف.. إلى إمدادِ النباتات للحيوانات الجائعة، وإلى سعي الحيوانات لمساعدة الإنسان الضعيف المكرّم، بل إلى وصول المواد الغذائية على جناح السرعة لإغاثة الأطفال النحاف، وإمداد الفواكه اللطيفة. بل إلى خِدمة ذرات الطعام لحاجة حجيرات الجسم.. كلُّ هذه الحركات الجارية وفق دستور «التعاون» تُري لِمَن

لم يفقد بصيرتَه كلّيا أنها تجري بقوةِ مربٍّ واحدٍ كريم مطلق الكرم، وبأمر مدبّر واحد حكيم مطلق الحكمة.

فهذا التساند، وهذا التعاون، وهذا التجاوب، وهذا التعانق، وهذا التسخير، وهذا الانتظام، الجاري في هذا الكون، يشهدُ شهادة قاطعة، أن مدبّرا واحدا هو الذي يديرُه، ومربّيا أحدا يسوق الجميع في الكون. زد عليه، فإن الحكمةَ العامة الظاهرة بداهة في خلق الأشياء البديعة، وما تتضمنه من عناية تامة، وما في هذه العناية من رحمة واسعة، وما على هذه الرحمة من أرزاق منثورة تفي بحاجة كل ذي حياة وتعيّشه وفق حاجاته.. كل ذلك ختم عظيم للتوحيد له من الظهور والوضوح ما يفهمه كلُّ مَن لم تنطفئ جذوةُ عقله، ويراه كلُّ من لم يَعْمَ بصَرُه؟.

نعم، إن حُلّة «الحكمة» التي يتراءى منها القصدُ والشعورُ والإرادةُ قد أُسبغت على الكون كله وجُلّلت كلّ جوانبه.. وخُلعَتْ على حُلة الحكمة هذه حلّةُ «العناية» التي تشفّ عن اللّطف والتزيين والتحسين والإحسان.. وعلى هذه الحلة القشيبة للعناية ألقيت حلّةُ «الرحمة» التي يتألق منها بريقُ التودد والتعرف والإنعام والإكرام وهي تغمر الكون كلَّه وتضمه.. وصُفَّت على

هذه الحلّة المنوّرة للرحمة العامة «الأرزاق العامة»، ومُدّت موائدُها التي تعرِض الترحّمَ والإحسانَ والإكرامَ والرأفة الكاملة وحسن التربية ولطف الربوبية.

نعم، إن هذه الموجودات؛ ابتداءً من الذرات إلى الشموس، سواء أكانت أفرادا أم أنواعا وسواء أكانت صغيرة أم كبيرة، قد أُلبست ثوبا رائعا جدا، نُسجَ هذا الثوب من قماش «الحكمة» المزيّن بنقوش الثمرات والنتائج والغايات والفوائد والمصالح.. وكسيت بحلّةِ «العناية» المطرزة بأزاهير اللطف والإحسان قُدّت وفُصّلت حسب قامة كل شيء ومَقاس كل موجود.. وعلى حلّة العناية هذه قُلّدت شاراتُ «الرحمة» الساطعة ببريق التودد والتكرم والتحنن، والمتلألئة بلمعات الإنعام والإفضال.. وعلى تلك الشارات المرصّعة المنورة نُصبَت مائدةُ «الرزق» العام على امتداد سطح الأرض، بما يكفي جميع طوائف ذوي الحياة وبما يفي سدّ جميع حاجاتهم.

وهكذا، فهذا العملُ يشير إشارة واضحة وضوحَ الشمس، إلى حكيمٍ مطلقِ الحكمة، وكريم مطلقِ الكرم، ورحيم مطلق الرحمة، ورزاق مطلق الرزق.

- أحقا أن كل شيء بحاجة إلى الرزق؟

نعم، كما أننا نرى أن كل فرد بحاجة إلى رزق يديم حياتَه، كذلك جميعُ موجودات العالم -ولا سيما الأحياء- الكلّي منها والجزئي، أو الكلّ والجزء، لها في كيانها، وفي بقائها، وفي حياتها وإدامتها، مطاليبُ كثيرة، وضروريات عديدة، مادةً ومعنىً. ومع أنها مفتقرة ومحتاجة إلى أشياء كثيرة مما لا يمكن أن تصل يدُها إلى أدناها، بل لا تكفي قوّةُ ذلك الشيء وقدرتُه للحصول على أصغر مطالبه، نشاهد أن جميع تلك المطالب والأرزاق المادية والمعنوية تُسلَّم إلى يديه من حيث لا يحتسب، وبانتظام كامل وفي الوقت المناسب تسليما موافقا لحياته متّسما بالحكمة الكاملة.

أَلَا يدل هذا الافتقار، وهذه الحاجة في المخلوقات، وهذا النمط من الإمداد والإعانة الغيبية، على ربٍّ حكيمٍ ذي جلال ومدبّر رحيم ذي جمال؟.

اللمعة الثامنة

مثلما أن زراعة بذورٍ في حقلٍ ما، تدل على أن ذلك الحقل هو تحت تصرف مالك البذرة، وأن تلك البذرة هي كذلك تحت تصرفه. فإن كلّيةَ العناصر في مزرعة الأرض، وفي كل جزء منها،

مع أنها واحدة وبسيطة، وانتشارَ المخلوقات من نباتات وحيوانات في معظم الأماكن -وهي تمثل ثمرات الرحمة الإلهية ومعجزات قدرته وكلمات حكمته- مع أنها متماثلة ومتشابهة ومتوطنة في كل طرف.. إن هذه الكلّية والانتشار يدلان دلالة جَليّة على أنهما تحت تصرّف ربّ واحد أحد. حتى كأن كلّ زهرة، وكلّ ثمرة، وكل حيوان، آيةُ ذلكم الربّ الكريم وختمُه وطغراؤه، فأينما يحل أيٌّ منها يقول بلسان حاله: «مَن كنتُ آيتَه، فهذه الأرض مصنوعتُه، ومَن كنتُ ختمَه فهذا المكان مكتوبُه، ومَن كنتُ علامتَه فهذا الموطن منسوجُهُ..»

فالربوبية إذن على أدنى مخلوق، إنما هي من شأن مَن يُمسك في قبضة تصرّفه جميعَ العناصر.. ورعايةُ أدنى حيوان إنما هي من شأن مَن لا يُعجزه تربيةُ جميع الحيوانات والنباتات والمخلوقات ضمن قبضة ربوبيته!. هذه الحقيقةُ واضحة لِمَن لم يَعمَ بصرُه!

نعم، إنّ كل فرد يقول بلسان مماثلته ومشابهته مع سائر الأفراد: «مَن كان مالكا لجميع نوعي يمكنه أن يكون مالكي، وإلّا فلا». وإنّ كل نوع يقول بلسان انتشاره مع سائر الأنواع، وكذا الأرض تقول بلسان ارتباطها بسائر السيارات بشمس واحدة

وتساندها مع السماوات: «مَن كان مالكا للكون كلّه يمكنه أن يكون مالكي، وإلّا فلا».

فلو قيل لتفاحةٍ ذات شعور: «أنتِ مصنوعتي أنا» فسترد عليه تلك التفاحة بلسان الحال قائلة: «صه.. لو استطعتَ أن تكون قادرا على تركيب ما على سطح الأرض من تفاح، بل لو أصبحت متصرفا فيما على الأرض من نباتات مثمرة من جنسنا، بل متصرفا في هدايا الرحمن التي يجود بها من خزينة الرحمة. فادَّعِ آنذاك الربوبية عليَّ!» فتلطمُ تلك التفاحة بهذا الجواب فمَ ذلك الأحمق لطمة قوية..!.

اللمعة التاسعة

لقد أشرنا إلى آياتٍ وأختام موضوعة على «الجزء والجزئي»، وعلى «الكلّ والكلّي»، وعلى «العالَم الكلّي»، وعلى «الحياة» وعلى «ذوي الحياة» وعلى «الإحياء»، ونشير هنا إلى آية واحدةٍ مما لا يُحصى من الآيات في «الأنواع»:

إن تكاليف أثمار عديدة لشجرة مثمرة تتسهّل، ومصاريفها تتذلل، حتى تتساوى مع تكاليف ومصاريف ثمرةٍ واحدة تربّت بأيدي الكثرة. ذلك لأنّ الشجرة الواحدة المثمرة تُدار من مركز

واحد، وبتربية واحدة، وبقانون واحد. أي إن الكثرة وتعدد المراكز يستدعيان أن تكون لكل ثمرة مصاريف وتكاليف وأجهزة - كميةً- بقدر ما تحتاجُه شجرة كاملة. والفرق في النوعية ليس إلّا. مثَلُه في هذا مثلُ عمَل عَتادٍ لجندي، وتوفير تجهيزاته العسكرية، إذ يحتاج معاملَ بقدر المعامل التي يحتاجها الجيش بأكمله. فالعمل إذن إذا انتقل من يد الوحدة إلى يد الكثرة فإن التكاليف تزداد من حيث الكمية بعدد الأفراد. وهكذا فإن ما يشاهَد من أثر اليُسر والسهولة الظاهرة في النوع إنما هو ناشئ من السهولة الفائقة في الوحدة والتوحيد.

الخلاصة: كما أن التشابه والتوافق في الأعضاء الأساس لأنواع جنسٍ واحد وأفراد نوعٍ واحد، يُثبتان أن تلك الأنواع والأفراد إنما هي مخلوقاتُ خالقٍ واحد، كذلك السهولةُ المطلقة المشهودة، وانعدامُ التكاليف، تستلزمان بدرجة الوجوب أن يكون الجميعُ آثارَ صانع واحد؛ لأن وحدةَ القلم ووحدةَ السكة والختم تقتضيان هذا، وإلّا لساقت الصعوبةُ التي هي في درجة الامتناع ذلك الجنس إلى الانعدام، وذلك النوع إلى العدم.

نحصل من هذا: أنه إذا أسند الخلقُ إلى الحق سبحانه

وتعالى فإن جميع الأشياء حُكْمها في سهولة الخلق كخلق شيءٍ واحد، وإن أسند إلى الأسباب فإن كلَّ شيء يكون حُكمُه في الخلق صعبا كصعوبة خلق جميع الأشياء. ولمّا كان الأمر هكذا، فالوفرةُ الفائقة المشاهَدة في العالم، والخِصبُ الظاهر أمام العين يظهران كالشمس آيةَ الوحدة. فإن لم تكن هذه الفواكهُ الوفيرةُ التي نتناولها مُلكا لواحدٍ أحد، لَمَا أمكننا أن نأكل رمانةً واحدة ولو أعطينا ما في الدنيا كلها ثمنا لصُنعها.

اللمعة العاشرة

كما أن الحياة التي تُظهر تَجلّي الجمال الرباني هي برهان الأحدية، بل هي نوع من تجلي الوحدة، فالموتُ الذي يُظهر تجلي الجلال الإلهي هو الآخر برهان الواحدية.

فمثلا: إن الفقاعات والزبَد والحباب المواجهة للشمس، والتي تنساب متألقةً على سطح نهرٍ عظيم، والموادَ الشفافة المتلمعة على سطح الأرض، شواهدُ على وجود تلك الشمس؛ وذلك بإراءتها صورةَ الشمس وعكسَها لضوئها. فدوامُ تجلي الشمس ببهاء مع غروب تلك القطرات وزوال لمعان المواد، واستمرارُ ذلك التجلي دون نقص على القطرات والمواد الشفافة المقبلة مجددا، لهي

شهادة قاطعة على أن تلك الشُميسات المثالية، وتلك الأضواء المنعكسة، وتلك الأنوار المشاهدة التي تنطفئ وتضيء وتتغير وتتبدل متجدّدةً، إنما هي تجلياتُ شمسٍ باقية، دائمةٍ، عالية، واحدةٍ لا زوال لها. فتلك القطرات اللماعة إذن بظهورها وبمجيئها تدلّ على وجود الشمس وعلى دوامها ووحدتها.

وعلى غرار هذا المثال «**ولله المثل الأعلى**» نجد أن: هذه الموجودات السيالة إذ تشهدُ بوجودها وحياتها على وجوب وجود الخالق سبحانه وتعالى، وعلى أحديته، فإنها تشهد بزوالِها وموتِها أيضا على وجود الخالق سبحانه وعلى أزليته وسرمديته وواحديته.

نعم، إن تجدد المصنوعات الجميلة وتبدّل المخلوقات اللطيفة، ضمن الغروب والشروق، وباختلاف الليل والنهار، وبتحول الشتاء والصيف، وتبدل العصور والدهور، كما أنها تشهد على وجود ذي جمال سرمدي رفيع الدرجات دائم التجلي، وعلى بقائه سبحانه ووحدته، فإن موتَ تلك المصنوعات وزوالها -بأسبابها الظاهرة- يبيّن تفاهةَ تلك الأسباب وعَجزها، وكونها ستارا وحجابا ليس إلّا.. فيُثبت لنا هذا الوضع إثباتا قاطعا أن هذه الخِلقة والصَنعة، وهذه النقوش والتجليات إنما هي مصنوعات

ومخلوقات متجددة للخالق جلّ جلالُه الذي جميعُ أسمائه حُسنى مقدّسة، بل هي نقوشُه المتحولة، ومراياه المتحركة وآياتُه المتعاقبة، وأختامُه المتبدلة بحكمة.

الخلاصة: إنّ كتاب الكون الكبير هذا إذ تعلّمُنا آياتُه التكوينية الدالة على وجوده سبحانه وعلى وحدانيته، يشهد كذلك على جميع صفات الكمال والجمال والجلال للذات الجليلة. ويُثبت أيضا كمال ذاته الجليلة المبرّأة من كل نقص، والمنـزّهة عن كل قصور. ذلك لأن ظهورَ الكمال في أثرٍ ما، يدل على كمال الفعل الذي هو مصدرُه، كما هو بديهي.. وكمالُ الفعل هذا يدلّ على كمال الاسم، وكمالُ الاسم يدل على كمال الصفات، وكمالُ الصفات يدل على كمال الشأن الذاتي، وكمال الشأن الذاتي يدل على كمال الذات -ذات الشؤون- حَدسا وضرورة وبداهة.

فمثلا: إنّ النقوش المتقنة والتزيينات البديعة لقصر كامل رائع، تدل على ما وراءها من كمال الأفعال التامة لبنّاء ماهر خبير.. وإن كمال تلك الأفعال وإتقانَها ينطق بتكامل الأسماء لرُتَب وعناوين ذلك البنّاء الفاعل، وتكاملَ الأسماء والعناوين يُفصح عن تكامل صفاتٍ لا تُحصى لذلك الصانع من جهة صنعته،

وتكاملَ تلك الصفات وإبداع الصنعة يشهدان على تكامل قابليات ذلك الصانع واستعداداته الذاتية المسماة بالشؤون، وتكاملَ تلك الشؤون والقابليات الذاتية تدل على تكامل ماهية ذات الصانع.

وهكذا الأمر في الصنعة المبدعة المبرّأة من النقص والفطور في الآثار المشهودة في العالم، وفي هذه الموجودات المنتظمة في الكون، التي لفتت إليها الأنظارَ الآيةُ الكريمة: ﴿ **هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ** ﴾ (الملك:٣)، فهي تدل بالمشاهدة على كمالِ الأفعال لمؤثّرٍ ذي قدرة مطلقة، وكمالُ الأفعال ذاك يدل بالبداهة على كمال أسماء الفاعل ذي الجلال، وذلك الكمالُ يدل ويشهد بالضرورة على كمالِ صفاتِ مسمّى ذي جمال لتلك الأسماء، وكمالُ الصفات ذاك يدل ويشهد يقينا على كمال موصوف ذي كمال، وكمالُ الشؤون ذاك يدل بحق اليقين على كمال ذاتٍ مقدسة ذات شؤون، دلالةً واضحة بحيث إن ما في الكون من أنواع الكمالات المشاهَدة ليس إلّا ظلا ضعيفا منطفئا -ولله المثل الأعلى- بالنسبة لآيات كمالِه ورموز جلاله وإشارات جماله سبحانه وتعالى.

اللمعة الحادية عشرة الساطعة كالشموس

لقد عُرّف في «الكلمة التاسعة عشرة» بأنّ أعظم آية في كتاب الكون الكبير، وأعظمَ اسمٍ في ذلك القرآن الكبير، وبذرةَ شجرة الكون، وأنورَ ثمارها، وشمسَ قصر هذا العالم، والبدرَ المنوّر لعالم الإسلام، والدال على سلطان ربوبية الله، والكشّافَ الحكيم للغز الكائنات، هو سيدُنا محمد الأمين عليه أفضل الصلاة والسلام، الذي ضمّ الأنبياءَ جميعا تحت جناح الرسالة، وحمى العالمَ الإسلامي تحت جناح الإسلام، فحلّق بهما في طبقات الحقيقة متقدما موكبَ جميع الأنبياء والمرسلين، وجميعَ الأولياء والصديقين، وجميعَ الأصفياء والمحققين مبيّنا الوحدانية واضحة جلية بكل ما أوتي من قوة، فاتحا طريقا سوِية إلى عرش الأحدية، دالا على طريق الإيمان بالله، مثبتا الوحدانية الحقة.. فأنّى لوهمٍ أو شبهةٍ أن يكون لهما الجرأة ليسدّا أو يحجبا ذلك الطريقَ السوي؟

ولما كنّا قد بيّنا إجمالا في «الكلمة التاسعة عشرة» و«المكتوب التاسع عشر» ذلك البرهان القاطع -الذي هو الماء الباعث للحياة- بأربعَ عشرة رشحة، وتسعَ عشرة إشارة، مع بيان أنواع معجزاته ﷺ، لذا نكتفي بهذه الإشارة هنا، ونختمها بالصلاة

والسلام على ذلك البرهان القاطع للوحدانية، صلاةً وسلاما تشيران إلى تلك الأسس التي تزكّيه وتشهد على صدقه:

اللهمَّ صلِّ على مَن دلّ على وجوب وجودك ووحدانيتك، وشَهِد على جلالك وجمالك وكمالك.. الشاهدُ الصادقُ المصدّق والبرهان الناطق المحقّق.. سيدُ الأنبياء والمرسلين، الحاملُ سرَّ إجماعهم وتصديقهم ومعجزاتهم.. وإمامُ الأولياء والصديقين الحاوي سرَّ اتفاقِهم وتحقيقهم وكراماتِهم، ذو المعجزات الباهرة والخوارقِ الظاهرة والدلائل القاطعة المحقَّقة المصدّقة له.. ذو الخصالِ الغالية في ذاته، والأخلاقِ العالية في وظيفته، والسجايا السامية في شريعته المكمَّلة المنـزّهة عن الخلاف.. مهبطُ الوحي الرباني بإجماع المُنـزِل والمُنـزَل والمُنـزَل عليه.. سيّارُ عالم الغيب والملكوت.. مشاهدُ الأرواح ومُصاحِبُ الملائكة.. أنموذجُ كمال الكائنات شخصا ونوعا وجنسا.. أنورُ ثمرات شجرةِ الخلقة.. سراجُ الحق، برهانُ الحقيقة، تمثالُ الرحمة، مثالُ المَحبة، كشافُ طلسم الكائنات، دلّالُ سلطنة الربوبية، المُرمِزُ بعلوية شخصيته المعنوية إلى أنّه نصبَ عين فاطر العالَم في خلق الكائنات.. ذو الشريعة التي هي بوُسْعة دساتيرها وقوتها تشير إلى أنها نظامُ ناظم الكون ووضْع خالق الكائنات.

نعم، إنّ ناظم الكائنات بهذا النظام الأتم الأكمل هو ناظمُ هذا الدين بهذا النظام الأحسن الأجمل، سيّدُنا نحن معاشرَ بني آدم ومُهدينا إلى الإيمان نحن معاشرَ المؤمنين، محمدُ بن عبد الله بن عبد المطلب عليه أفضل الصلوات وأتمّ التسليمات ما دامت الأرضُ والسماوات، فإن ذلك الشاهدَ الصادق المصدَّق يشهد على رؤوس الأشهاد مناديا، ومعلّما لأجيال البشر خلف الأعصار والأقطار، نداءً عُلويا بجميع قوته وبغاية جدّيته وبنهاية وثوقه وبقوة اطمئنانه وبكمال إيمانه: «**أشهد أن لا إله إلّا الله وحدَه لا شريكَ له**».

اللمعة الثانية عشرة الساطعة كالشموس

إن هذه اللمعة الثانية عشرة من هذه الكلمة الثانية والعشرين لهي بحرُ الحقائق ويا له من بحر عظيم بحيث إن الكلمات الاثنتين والعشرين السابقة لا تكون إلّا مجرد اثنتين وعشرين قطرةً منه. وهي منبع الأنوار ويا له من منبع عظيم بحيث إن تلك الكلمات الاثنتين والعشرين ليست سوى اثنتين وعشرين لمعةً من تلك الشمس.

نعم إن كل كلمة من تلك الكلمات الاثنتين والعشرين السابقة ما هي إلّا لمعة واحدة لنجمِ آيةٍ واحدة تسطعُ في سماء

القرآن الكريم، وما هي إلّا قطرة واحدة من نهر آية تجري في بحر الفرقان الكريم، وما هي إلّا لؤلؤة واحدة من صندوق جواهر آيةٍ واحدة من كتاب الله الذي هو الكنـز الأعظم. لذا ما كانت الرشحةُ الرابعة عشرة من الكلمة التاسعة عشرة إلّا نبذة من تعريف ذلك الكلام الإلهي العظيم، كلامِ الله الذي نـزل من الاسم الأعظم.. من العرش الأعظم.. من التجلّي الأعظم للربوبية العظمى، في سعةٍ مطلقة، وسموّ مطلق، يربط الأزلَ بالأبد، والفرشَ بالعرش، والذي يقول بكل قوته ويردّد بكل قطعية آياتِه: «**لا إله إلّا هو**» مُشهدا عليه الكونَ قاطبة.

حقا إن العالم كلَّه ينطق معا «لا إله إلّا هو».

فإذا نظرتَ إلى ذلك القرآن الكريم ببصيرة قلبٍ سليم، ترى أن جهاتِه الست ساطعة نيّرة، وشفافة رائقة، بحيث لا يمكن لظُلمةٍ ولا لضلالة ولا لشبهة ولا لحيلةٍ أيّا كانت أن ترى لها شقا وفُرجةً للدخول في رحابه المقدس قط، حيث إن عليه: شارةَ الإعجاز، وتحتَه: البرهانُ والدليل، وخلفَه (نقطة استناده): الوحيُ الرباني المحض، وأمامَه: سعادةُ الدارين، ويمينَه: تصديقُ العقل باستنطاقه، وشمالَه: تثبيتُ تسليم الوجدان باستشهاده. وداخلَه:

هداية رحمانية خالصة بالبداهة، وفوقَه: أنوارٌ إيمانية خالصة بالمشاهدة. وثمارُه: الأصفياءُ والمحققون والأولياء والصديقون المتحلّون بكمالات الإنسانية بعين اليقين.

فإذا ألصقتَ أذنَك إلى صدر لسان الغيب مُصغيا فإنك ستسمع من أعمق الأعماق صدىً سماويا في غاية الإيناس والإمتاع، وفي منتهى الجدّية والسموّ المجهَّز بالبرهان، يردّد: «**لا اِله إلّا هو**» ويكرّرها بقطعية جازمة ويَفيضُ عليك من العلم اليقين بدرجة عين اليقين بما يقوله من حق اليقين.

زبدة الكلام: إن الرسول الكريم ﷺ، والفرقانَ الحكيم الذي كلّ منهما نور باهر، أظهرا حقيقةً واحدة؛ هي حقيقة التوحيد.

فأحدهما: لسانُ عالم الشهادة. أشار إلى تلك الحقيقة بأصابعِ الإسلام والرسالة وبيّنها بجلاء، بكل ما أوتي من قوة من خلال ألفٍ من معجزاته وبتصديق جميع الأنبياء والأصفياء.

والآخر: هو بمثابة لسان عالم الغيب. أظهر الحقيقةَ نفسها وأشار إليها بأصابع الحق والهداية، وعرضَها بكل جدّ وأصالة، من خلال أربعين وجها من وجوه الإعجاز، وتصديقٍ من قبل جميع

الآيات التكوينية للكون.. ألا تكون تلك الحقيقة أبهرَ من الشمس وأسطع منها، وأوضح من النهار وأظهر منه؟!

أيها الإنسانُ الحقير المتمرّد السادر في الضلالة[٢٥] كيف تتمكن أن تضارع هذه الشموس بما في رأسك من بصيص خافتٍ هزيل؟ وكيف يمكنك الاستغناءَ عن تلك الشموس، وتسعى إلى إطفائها بنفخ الأفواه؟ تبّا لعقلك الجاحد، كيف تجحد ما قاله لسانُ الغيب ولسانُ الشهادة من كلامٍ باسم رب العالمين ومالكِ الكون، وتنكر ما دعا إليه من دعوة.

أيها الشقيُّ الأعجزُ من الذباب والأحقرُ منه، مَن أنت حتى تُورِّط نفسَك في تكذيب مالك الكون ذي الجلال والإكرام؟

---

(٢٥) هذا الخطاب موجّه للذي حاول رفع القرآن وإزالته. (المؤلف)

الخاتمة

أيها الصديقُ يا ذا العقل المنوّر والقلب المتيقظ! إن كنت قد فهمت هذه «الكلمة الثانية والعشرين» من بدايتها، فخذ بيدك الاثنتي عشرة لمعة دفعةً واحدة، واظفر بها سراجا للحقيقة، بقوة آلافٍ من المصابيح، واعتصم بالآيات القرآنية الممتدة من العرش الأعظم، وامتطِ براقَ التوفيق واعرج في سماوات الحقائق واصعَد إلى عرش معرفة الله سبحانه وقل: أشهد أن لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك وأعلن في المسجد الكبير للعالم على رؤوس موجودات الكون الوحدانية قائلا:

لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت، وهو حيّ لا يموت، بيده الخير، وهو على كل شيء قدير.

﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾

اَللّٰهمَّ صَلِّ عَلَى مَن أرْسَلْتَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أجْمَعِينَ وَارْحَمْنَا وَارْحَم أمَّتَهُ بِرَحْمَتِكَ يَا أرْحَمَ الرَّاحِمِينَ آمِينَ.

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

النكتة الرابعة من اللمعة الثلاثين

إشارات الى التوحيد الحقيقي

تخص اسم الله (الفرد)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:١)

بينما أنا نزيل سجن «أسكي شهر» في شهر شوال إذ تراءت لي نكتة دقيقة من النكات اللطيفة لهذه الآية الجليلة، ولاح لي قبسٌ من أنوار اسم الله الأعظم: «الفرد» -أو هو أحد أنواره الستة- الذي يتضمن اسمَي «الواحد والأحد» من الأسماء الإلهية الحسنى.

سنبين هنا باختصار شديد التوحيد الحقيقي الذي يُظهره ذلك التجلي الأعظم. وذلك في سبع إشارات موجزة.

الإشارة الأولى:

لقد وضع اسمُ الله الأعظم «الفرد» بتجليه الأعظم على الكون كلِّه بصماتِ التوحيد المميز، وأختامَ الوحدانية الواضحة، على مجموع الكون، وعلى كل نوعٍ فيه، وعلى كل فردٍ فيه. ولما كانت «الكلمة الثانية والعشرون» و«المكتوب الثالث والثلاثون» قد تناولا بيان ذلك التجلي بشيء من التفصيل، نكتفي بالإشارة فقط إلى ثلاث بصماتٍ وأختام منها دالّة على التوحيد:

الختم الأول: إن التجلي الأعظم للفردية قد طبع على وجه «الكون» كلِّه طابعاً مميزاً للتوحيد، وختماً واضحاً للوحدانية وضوحاً حوّل الكون كلَّه بحُكم «الكل» الذي لا يقبل التجزئة مطلقاً بحيث إن مَن لا يقْدِر على أن يتصرف في الكون كلِّه لا يمكن أن يكون مالكاً مُلكاً حقيقياً لأي جزء منه. ولنوضح هذا الختم المميز:

إنَّ موجودات الكون، بأنواعها المختلفة، تتعاون فيما بينها تعاوناً وثيقاً، ويسعى كلّ جزء منها لتكملة مهمةِ الآخر وكأنها تمثل بمجموعها وأجزائها تروسَ معمل بديع ودواليبَه -الذي يشاهد فيه هذا التعاون بوضوح- فهذا التساند، وهذا

التعاون بين الأجزاء، وهذه الاستجابة في إسعاف كلٍّ منها لطلب الآخر، وإمداد كلِّ جزء للجزء الآخر، بل هذا التعانق والاندماج بين الأجزاء، يجعل من أجزاء الكون كله وحدةً متحدة تستعصي على الانقسام والانفكاك. يشبه في هذا وحدةَ أجزاء جسم الإنسان الذي لا يمكن فكّ بعضها عن البعض الآخر.

نفهم من هذا أن الذي يمسك زمام عنصر واحد في الوجود، إنْ لم يكن زمام جميع العناصر بيده لا يستطيع أن يسيطر على ذلك العنصر الواحد أيضاً. إذن فـ«التعاون» و«التساند» و«التجاوب» و«التعانق» الواضحة على وجه الكون، إنما هي أختامٌ كبرى وبصمات ساطعة للتوحيد.

الختم الثاني: إنَّ التجلي الباهر لاسم الله «الفرد» يجعلنا نُشاهد -على وجه الأرض ولاسيما في الربيع- ختماً لامعاً للأحدية، وآيةً جلية للوحدانية بحيث إن من لا يدير جميع الأحياء على وجه الأرض كلها بأفرادها وأحوالها وشؤونها كافة، والذي لا يرى ولا يخلق ولا يعلم جميعها معاً، لا يمكن أن يكون له تدخل في أي شيء من حيث الإيجاد. فلنوضح هذا

الختم:

تأمل في هذه البُسُط المفروشة على الأرض التي لُحمتُها وسَداها مائتا ألف طائفة ونوع من أنواع الحيوانات وطوائف النباتات بأفرادها المتنوعة التي لا تعد ولا تحصى والتي تضفي الزينة وتنثر البهجة على نسيج الحياة على سطح الأرض -وبخاصة في الربيع- تأمّلها جيداً وأدِم النظر فيها، فإنها مع اختلاف أشكالها، وتباين وظائفها، واختلاف أرزاقها وتنوع أجهزتها، وامتزاجها بعضها مع البعض الآخر تشاهِد: إنَّ رزق كل ذي حياة يأتيه رغداً من كل مكان ومن حيث لا يحتسب، بلا سهو ولا نسيان، بلا انشغال ولا ارتباك، بلا خطأ ولا التباس.. فيُعطى بميزان دقيق حساس كل ما يحتاجه الفرد، في وقته المناسب، من دون تكلف ولا تكليف، مع تمييز لكلٍ منها، وهو يموج في هذا الامتزاج الهائل وفي هذا الخضم من الموجودات المتداخلة، فضلاً عما يُخْبِئ باطنُ الأرض من آيات التوحيد الرائعة المتلمعة من انتظام المعادن والعناصر الجامدة.

لذا فإن هذا «التدبير والإدارة» المشاهد في هذا الأمر الدائب على وجه الأرض وباطنها إنما هو آية ساطعة للأحدية،

وختمٌ واضح للوحدانية، بحيث إن مَن لم يكن خالقاً لجميع تلك الموجودات من العدم، ومدبّراً لجميع شؤونها في آن واحد، لا يقدر على التدخل -من حيث الربوبية والإيجاد- في شيء منها، لأنه لو تدخل لأفسد تلك الإدارة المتوازنة الواسعة. إلّا ما يؤديه الإنسان من وظيفة ظاهرية -بإذن إلهي أيضاً- لكشف تلك القوانين الربانية وحُسن سيرها.

الختم الثالث: في وجه الإنسان

إنَّ شعار التوحيد وختمَه واضح وضوحاً بيناً لكل مَن يتأمل وجهَ أي إنسان كان، وذلك: أنَّ لكل إنسان علامةً فارقة في وجهه تُميِّزه عن غيره. فالذي لا يستطيع أن يضع تلك العلامات في كل وجه، ولا يكون مطّلعاً على جميع الوجوه السابقة واللاحقة منذ آدم عليه السلام إلى يوم القيامة، لا يمكنه أن يمدّ يدَه من حيث الخلق والإيجاد ليضع تلك الفوارق المميّزة الهائلة في ذلك الوجه الصغير لإنسان واحد.

نعم، إنَّ الذي وضع في وجهِ الإنسان ذلك الطابع المميز وتلك الآية الجلية بتلك العلامات الفارقة، لا بد أن أفراد البشر كافة هم تحت نظره وشهوده، وضمنَ دائرة علمه حتى يضع ذلك

الختمَ للتوحيد في ذلك الوجه. بحيث إنه مع التشابه الظاهر بين الأعضاء الأساس -كالعيون والأنوف وغيرها من الأعضاء- لا تتشابه تشابهاً تاماً، بسبب علامات فارقة في كلٍ منها. وكما أن تشابه الأعضاء -من عيون وأنوف- في وجوه البشر كافة دليل قاطع على وحدانية خالق البشر سبحانه وتعالى، كذلك فإن العلامات الفارقة الموضوعة على كل وجهٍ -لصيانة حقوق كل فرد في المجتمع، ولمنع الالتباس، وللتمييز، ولحِكَم أخرى كثيرة- هي الأخرى دليلٌ واضح على الإرادة المطلقة والمشيئة الكاملة لذلك الخالق الواحد سبحانه وتعالى، وآيةٌ بديعة جلية أيضاً للأحدية، بحيث إن من لا يَقدر على خلق جميع البشر والحيوانات والنباتات بل جميع الكون لا يمكنه أن يضع تلك السمة المميزة في أحد.

الإشارة الثانية:

إنَّ عوالم الكائنات المختلفة وأنواعها المتنوعة وعناصرها المتباينة قد اندمجت اندماجاً كلياً وتداخل بعضُها مع البعض الآخر، بحيث إنَّ مَن لم يكن مالكاً لجميع الكون لا يمكنه أن يتصرف بنوعٍ منه أو عنصر فيه تصرفاً حقيقياً، لأن تجلي نورِ التوحيد لاسم الله «الفرد» قد أضاء أرجاء الكون كله، فضمّ

أجزاءها كافة في وحدة متحدة، وجعل كل جزء منه يعلن تلك الوحدانية.

فمثلاً: كما أن كون الشمس مصباحاً واحداً لهذه الكائنات يشير إلى أن الكائنات بأجمعها ملكٌ لواحد، فإن كونَ الهواء هواءً واحداً يسعى لخدمة الأحياء كلها.. وكونَ النار ناراً واحدة توقد بها الحاجات كلها.. وكون السحاب واحداً يسقي الأرض.. وكون الأمطار واحدة تأتي لإغاثة الأحياء كافة.. وانتشار أغلب الأحياء من نباتات وحيوانات انتشاراً طليقاً في أرجاء الأرض كافة مع وحدة نوعيتها، ووحدة مسكنها.. كل ذلك إشارات قاطعة وشهادات صادقة على أن تلك الموجوداتِ ومساكنَها ومواضعَها إنما هي ملكٌ لمالك واحدٍ أحد.

ففي ضوء هذا وقياساً عليه نرى: أن تداخل الأنواع المختلفة للكائنات واندماجها الشديد ببعضها قد جعل مجموعَها بمثابة كلٍ واحد لا يقبل التجزئة قطعاً من حيث الإيجاد. فالذي لا يستطيع أن يُنفّذ حكمَه على جميع الكون لا يمكنه –من حيث الخلق والربوبية– أن يُخضِع لربوبيته أيَّ شيء فيه، حتى لو كان ذلك الشيء ذرةً أو أصغر منها.

الإشارة الثالثة:

لقد تحوّل الكون كلُّه بالتجلي الأعظم لاسم الله «الفرد» إلى ما يشبه رسائل صمدانية ومكاتيب ربانية متداخلة بعضها في البعض الآخر، تزخر كلُّ رسالة منها بآيات الوحدانية وأختام التوحيد، وتحمل كل رسالة بصماتِ الأحدية بعدد كلماتها، بل إن كل كلمة فيها تُفصح عن وحدانية كاتبها؛ إذ كما يدل الختمُ أو التوقيع في الرسالة على كاتبها، فإن كل زهرة وكل ثمرة، وكل عشب، وكل حيوان، وكل شجر، إنما يمثل ختمَ الأحدية وطغراء الصمدانية وكأنها أختام لمواضعها التي تتخذ هيئة الرسائل فتبين كاتبَها. فزهرةٌ صفراء -مثلاً- في حديقةٍ ما. هذه الزهرة هي بمثابة ختمٍ يدل بوضوح على مصوِّر الحديقة، فمَنْ كان مالكاً لذلك الختم -الزهرة- فهو مالكٌ لجميع أنواع تلك الزهرة ومثيلاتها المبثوثة على الأرض كافة، ويدل أيضاً على أن تلك الحديقة كتابتُه. أي إن كل شيء يَسْنِدُ جميع الأشياء إلى خالقها ويشير إلى تجلٍ باهر عظيم لوحدانيته سبحانه.

الإشارة الرابعة:

لقد أوضحت «رسائل النور» في أجزائها الكثيرة ببراهين

متعددة أن التجلي الأعظم لاسم الله الفرد مع أنه واضحٌ وضوح الشمس، فهو مقبول في الأعماق إلى حد السهولة المطلقة، وهو مستساغ عقلاً ومنطقاً إلى حد الوجوب والبداهة. وبعكسه الشرك المنافي لذلك التجلي، فهو معقّد إلى أقصى حدود التعقيد، وغير منطقي إطلاقاً، وهو بعيد جداً عن المعقول إلى حد المحال والامتناع. سنبين هنا ثلاث نقاط من تلك الأدلة فقط، ونحيل تفاصيلها إلى الرسائل الأخرى.

النقطة الأولى: لقد أثبتنا ببراهين قاطعة في ختام «الكلمة العاشرة» وفي «الكلمة التاسعة والعشرين» إثباتاً مجملاً، وفي ختام «المكتوب العشرين» مفصلاً أنه: من السهولة واليسر على قدرة «الأحد الفرد» سبحانه، خَلقُ أعظم جِرم، وخلقُ أصغرِ شيء على حدّ سواء، فهو سبحانه يخلق الربيعَ الشاسع بيُسرِ خلقِ زهرةٍ واحدة، ويُحدِث في كل ربيع بسهولة بالغة آلافاً من نماذج الحشر والنشور -كما هو مشاهَد- ويُراعي شجرة ضخمة باسقة بيُسر مراعاته فاكهةً صغيرة. فلو أُسنِد أيٌ من ذلك إلى الأسباب المتعددة، لأصبح خلقُ كلِّ زهرةٍ فيه من المشكلات ما للربيع الشاسع، وفي خَلقِ كل ثمرةٍ فيه من الصعوبات ما للشجرة

الباسقة.

نعم، إن كان تجهيزُ الجيش بأكمله بالمؤَن والعتاد بأمر صادر من قائد واحد، من مصدر واحد، سهلاً وبسيطاً كتجهيز جندي واحد، يكون صعباً بل ممتنعاً أن يكون كل جندي يتجهز من معامل متفرقة ويتلقى الأوامر من إدارات متعددة كثيرة، إذ عندئذٍ يحتاج كل جندي إلى معامل بقدر أفراد الجيش بأكمله!!

فكما أن الأمرَ يسهل بالوحدة ويصعب بالكثرة هكذا، كذلك إذا أُسنِد الخلقُ والإيجاد إلى «الفرد الأحد» جل وعلا، فإن خلقَ أفراد غير محدودة لنوعٍ واحد يكون سهلاً كخلق فرد واحد، بينما لو أُسنِد إلى الأسباب، فإن خلقَ كلّ فردٍ يكون مُعضلاً وصعباً كخلق النوع الواسع الكثير.

أجل، إن الوحدانية والتفرد تجعل كلَّ شيء منتسباً ومستنداً إلى الذات الإلهية الواحدة، ويصبح هذا الانتساب والاستناد قوةً لا حدّ لها لذلك الشيء، حتى يمكنه أن يُنجز من الأعمال الجسيمة، ويولّد من النتائج العظيمة ما يفوق قوتَه الذاتية ألوفَ المرات معتمداً على سر ذلك الاستناد والانتساب. أما الذي لا يستند ولا ينتسب إلى صاحب تلك القوة العظمى ومالكِها «الفرد الأحد»

فسينجز من الأعمال ما تتحمله قوتُه الذاتية المحدودة جداً، وتنحسر نتائجُها تبعاً لذلك.

فمثلاً: إن الذي انتسب إلى قائد عظيم واستند إليه بصفة الجندية، يصبح له هذا الانتساب والاستناد بمثابة قوةٍ ممدّة لا تنفد، فلا يضطر إلى حمل ذخيرته وعتاده معه، لذا قد يُقدِم على أسر قائد جيش العدو المغلوب مع آلافٍ ممن معه، بينما السائب الذي لم ينخرط في الجندية، مضطرٌ إلى حمل ذخيرته وعتاده معه، ومهما بلغ من الشجاعة فلا يستطيع أن يقاوم بتلك القوة إلّا بضعةَ أفراد من العدو، وقد لا يثبت أمامهم إلّا لفترة قليلة.

ومن هنا نرى أن قوة الاستناد والانتساب -التي في الفردية والوحدانية- تجعل النملة الصغيرة تقدم على إهلاك فرعون عنيد، وتجعل البعوضة الرقيقة تجهز على نمرود طاغية، وتجعل الميكروب البسيط يدمر باغياً أثيماً.. كما تمدّ البذرة الصغيرة لتحمِل على ظهرها شجرة صنوبر باسقة شاهقة.. كل ذلك باسم ذلك الانتساب وبسر ذلك الاستناد.

نعم، إن قائداً عظيماً شهماً يستطيع أن يستنفر جميعَ جنوده ويحشّدهم لإنقاذ جندي واحد وإمداده، والجندي بدوره يستشعر

كأن جيشاً جراراً يسنده ويمدّه بقوة معنوية عالية حتى تمكّنه من أن ينهض بأعمال جسام باسم القائد. فالله سبحانه وتعالى (وله المثل الأعلى) لأنه فرد واحد أحد، فلا حاجة في أية جهة إلى أحد غيره، وإذا افترضت الحاجة في جهة ما، فإنه يستنفر الموجودات كلها لإمداد ذلك الشيء وإسناده، فيحشر سبحانه الكون كله لأجله.

وهكذا يستند كلُّ شيء إلى قوة عظيمة هائلة تملك مقاليد الكون بأسره.. وهكذا يستمد كلُّ شيء في الوجود قوتَه من تلك القوة الإلهية العظيمة المطلقة.. من ذلك «الفرد الأحد» جلّ وعلا.

فلولا «الفردية».. لفقَد كل شيء هذه القوة الجبارة، ولسقط إلى العدم وتلاشت نتائجُه. فما تراه من ظهور نتائج عظيمة هائلة من أشياء بسيطة تافهة، ترشدنا بالبداهة إلى الفردية والأحدية. ولولاها لبقيت نتائجُ كلِّ شيء وثمارُه منحصرةً في قوته ومادته الضئيلة، وتصغر عندئذٍ النتائجُ بل تزول. ألا ترى الأشياء الثمينة النفيسة كالفواكه والخضر وغيرها مبذولة ومتوافرة أمامنا. ما ذلك إلّا بسر الوحدانية والانتساب وحشر جميع القوى، فلولا «الفردية» لما كنا نحصل بآلاف الدراهم ما نحصله اليوم من بطيخ

أو رمان بدراهم معدودة. فكل ما نشاهده من بساطة الأمور والأشياء وسهولتها ورخصها وتوفرها إنما هي من نتائج الوحدانية وتشهد بالفردية.

النقطة الثانية: إن الموجودات تُخلَق وتظهر إلى الوجود بوجهين:

الأول: الخلق من العدم، وهو ما يعبَّر عنه بـ«الإبداع والاختراع».

الثاني: إنشاؤها من عناصر موجودة، وتركيبُها ومنحُ الوجود لها من أشياء حاضرة، أي بـ«التركيب والإنشاء».

فإذا نظرنا إلى الموجودات من زاوية سر الأحدية وتجلي الفردية، نرى أن خلقَها وإيجادَها يكون سهلاً وهيّناً إلى حد الوجوب والبداهة، بينما إن لم يُفوَّض أمرُ الخلق والإيجاد إلى الفردية والوحدانية، فستتعقد الأمور وتتشابك، وتظهر أمورٌ غير معقولة وغير منطقية إلى حد المحال والامتناع. وحيث إننا نرى الموجودات قاطبة تظهر إلى الوجود من دون صعوبة وتكلف، ومن غير عناء، وعلى أتم صورة وكيفية، يثبت لنا بداهة إذن تجلي الفردية، ويتبين لنا: أن كل شيء في الوجود إنما هو من إبداع

«الأحد الفرد» ذي الجلال والإكرام.

نعم، إن أُسند أمرُ الخلق إلى «الفرد الواحد الأحد» يخلق كل شيء من العدم في لمح البصر وبكل سهولة ويسر، وبقدرته المطلقة العظيمة بآثارها المشهودة. ويقدّر لكل شيء بعلمِه المحيط المطلق ما يشبه قوالب معنوية وتصاميم غيبية.. فكل شيء عنده بمقدار.

فكما أن الجنود المطيعين في الجيش المنظم يُساقون لأخذ مواضعهم بأمر من القائد وحسب خطته الموضوعة في علمه، كذلك الذراتُ المطيعة للأوامر الربانية فإنها تساق بالقدرة الربانية -بكل سهولة ويسر- لتأخذ مواقعها وتحافظ عليها حسب تصميمٍ موجود، وصورةٍ موجودة، في مرآة العلم الإلهي الأزلي. حتى لو لزم جمعُ الذرات من الأنحاء المختلفة، فإن جميع الذرات المرتبطة بقانون العلم الإلهي المحيط، والموثوقة الصلة بدساتير القدرة الإلهية، تصبح بمثابة الجنود المنقادين في الجيش المنظم، فتأتي مسرعة بذلك القانون وبسَوق القدرة لأخذ مواقعها في ذلك القالب العلمي والمقدار القدري المحيطين بوجود ذلك الشيء. بل كما تظهر الصورةُ المثالية المتمثلة في المرآة على الورقة الحساسة في آله التصوير وتلبس وجوداً محسوساً خارجياً، وكما تظهر وتشاهَد

الكتابة المخفية السرية بإمرار مادة كيماوية عليها. كذلك الأمر في صورة جميع الموجودات، وماهية جميع الأشياء الموجودة في مرآة العلم الإلهي الفرد الأحد، فإن القدرة الإلهية المطلقة تُلبسها -بكل سهولة ويسر- وجوداً خارجياً محسوساً، فتظهر للعيان في عالم الشهادة، بعد أن كانت في عالم المعنى والغيب.

ولكن إن لم يُسند أمر الخلق إلى الفرد الأحد فعندئذٍ يلزم لخلق ذبابة واحدة مسحُ سطح الأرض وتفتيشها وغربلة عناصرها جميعاً وذراتِها المعينة لوجودٍ معيّن ثم وزنها بميزان دقيق حساس، لوضع كل ذرة في موضعها المخصص لها، حسب قوالب مادية بعدد أجهزتها وأعضائها المتقنة، وذلك لكي يأخذ كل شيء مكانه اللائق به، فضلاً عن جلب المشاعر والأحاسيس الروحية الدقيقة واللطائف المعنوية من العوالم المعنوية والروحية بعد وزنها أيضاً بميزان دقيق حسب حاجة الذبابة!!

ألا يكون -بهذا الاعتبار- خلقُ ذبابة واحدة صعباً ممتنعاً كإيجاد جميع الكائنات؟! أليس فيه الصعوبات تلو الصعوبات والمحالات ضمن المحالات؟! لذا اتفق جميعُ أهل الإيمان والعلم: أنه لا يخلق من العدم إلّا الخالقُ الفرد سبحانه وتعالى. ولهذا لو فُوّض الأمر إلى الأسباب والطبيعة استلزم لوجود شيء واحد

الجمعُ من أكثر الأشياء.

النقطة الثالثة: لقد أوردنا أمثلة كثيرة في رسائل شتى تشير إلى: أن إسناد الخلق إلى «الفرد الواحد الأحد» يجعل خلق جميع الأشياء سهلاً كالشيء الواحد، وبعكسه إذا أُسنِد إلى الطبيعة والأسباب فخلقُ الشيء الواحد يكون صعباً ممتنعاً كخلق جميع الأشياء.

نقتصر منها هنا على ثلاثة أمثلة فقط:

المثال الأول: إذا أُحيلت إدارة ألف جندي إلى ضابط واحد، وأُحيلت إدارةُ جندي واحد إلى عشرة ضباط، فإن إدارةَ هذا الجندي تكون ذات مشكلات وصعوبات بمقدار عشرة أضعاف إدارة تلك الفرقة من الجنود. وذلك: لأن الأمراء العديدين سيعادي بعضُهم بعضاً، وستتعارض أوامرُهم حتماً، فلا يجد ذلك الجندي راحةً بين منازعة أمرائه. بعكسه تماماً ذلك الضابط الذي يدير بأوامره فرقة كاملة من الجنود وكأنه يدير جندياً واحداً، وينفّذ خطته وما يريده من الفرقة بتدبيره كل شيء بسهولة ويسر، علماً أنه يتعذر الوصول إلى هذه النتيجة إذا تُرِك الأمر إلى جنود سائبين.

المثال الثاني: إذا سُلّم أمر بناء قبة جامع أيا صوفيا إلى بنّاء

ماهر، فإنه يقوم به بكل سهولة ويسر، بينما إذا سُلّم بناؤها إلى أحجارها، لزم أن يكون كلُّ حجرٍ حاكماً مطلقاً على سائر الأحجار، ومحكوماً لها في الوقت نفسه كي تأخذ القبةُ المعلقة الشامخة شكلَها! فبينما كان البنّاء الماهر يصرف جهداً قليلاً - لسهولة الأمر لديه- تصرف الآن مئات من البنّائين -الأحجار- أضعاف أضعاف ذلك الجهد من دون الحصول على نتيجة!!.

المثال الثالث: إنَّ الكرة الأرضية مأمورةٌ وموظفة من لدن «الفرد الواحد» سبحانه، وهي كالجندي المطيع لله الواحد الأحد، فحينما تستلم الأمر الواحد، الصادر من آمرها الأحد، تهبّ منتشية بأمر مولاها وتنغمر في جذبات وظيفتها في شوق عارم، وتدور كالمريد المولوي العاشق -عند قيامه للسماع- فتكون وسيلةً لحصول المواسم الأربعة، واختلاف الليل والنهار وظهور الحركات الرفيعة العظيمة، والكشف عن مناظر خلابة لقبة السماء المهيبة وتبديلها باستمرار كتبدل المشاهد السينمائية.. ويكون سبباً لحصول أمثال هذه النتائج الجليلة، حتى لكأنَّ الأرضَ هي القائد لتلك المناورة العسكرية المهيبة بين نجوم الكون.

ولكن إنْ لم يُسند الأمرُ إلى «الفرد الأحد» الذي أحاط

بحاكمية ألوهيته وسلطان ربوبيته الكون كله، والذي ينفذ حكمُه وأمره في كل صغيرة وكبيرة في الوجود، فعندئذٍ يلزم وجودُ ملايين النجوم التي تكبر الأرض بألوف المرات، ولابد من أن تسير هذه النجومُ في مدار أكبر وأوسع بملايين المرات من مدار الأرض كي تظهر تلك المناورة السماوية والأرضية وتلك النتائج نفسها التي تتولد من حركتي الأرض السنوية واليومية بكل سهولة ويسر.

وهكذا فإنَّ حصول هذه النتائج الجليلة الناشئة من حركتي الأرض حول محورها ومدارها -حركة تشبه حركات المولوي العاشق- يظهر لنا مدى السهولة والفطرية والبساطة في «الأحدية والفردية»، ويبين لنا في الوقت نفسه كم هي مملوءةٌ طريقُ الشرك والكفر بالمحالات التي لا حدَّ لها وبالأمور الباطلة غير المعقولة.

وبعد.. فلاحظ الآن بمنظار هذا المثال الآتي جهلَ المتشدقين بالطبيعة وعبّاد الأسباب، لتعلم في أي دَرَك من وحل الحماقة يتمرغون وفي أي بيداءِ وهمٍ يتيهون، وقِسْ عليه مدى بُعدِهم كل البعد عن ميدان المنطق والعقل السليم:

معمل عظيم.. كتاب رائع.. قصر مشيد.. ساعة دقيقة.. لا شك أن الذي صنع كلاً من هذه قد نظّمه ونسّقه بدقة وعناية،

ويجيد إدارته ويرعاه، ولا شك أنه أراد في صنع كل منها إظهارَ محاسن صنعته وإبراز بدائع عمله. فإن أحال أحدُهم إدارة المعمل العظيم إلى دواليب المعمل نفسه، وفوّض بناءَ القصر المنيف إلى أحجار القصر نفسه، وأسند معاني الكتاب الجميلة إلى الحروف نفسها، فكأنه قد جعل كل جزء من أجزاء المعمل ذا قدرة عظيمة لتنظيم نفسه وغيره! وجعل كلَّ حرف من حروف الكتاب بل الورق والقلم شيئاً خارقاً يبدع الكتاب نفسه! أي إنه يحيل روعةَ الانتظام في المعمل إلى دواليب المعمل، ويسند جمالَ المعنى في الكتاب إلى توافق الحروف من تلقاء نفسها!!

أيّ هذرٍ هذا! وأيّ وَهْم! أليس الذي يتفوّه به بعيداً كل البُعد عن سلامة العقل؟ فالذين يحيلون أمر الخلق والإيجاد في هذا الكون البديع إلى الأسباب وإلى الطبيعة يهوون في جهل مركّب سحيق كهذا. وذلك لأن مظاهرَ الإبداع واضحة على الأسباب والطبيعة نفسها، فهي مخلوقةٌ كسائر المخلوقات. فالذي خلقها – على هذه الصورة البديعة– هو الذي يخلق آثارَها ونتائجها أيضاً، ويظهرها معاً.. فالذي خلق البذرة هو الذي أنشأ عليها شجرتَها، وهو الذي يخرج أثمارَها وأزهارها من أكمامها.. بينما إن لم يُسنَد خلقُ الأسباب والطبيعة مع آثارهما إلى «الواحد الأحد»، يلزم

لوجود أنواع الأسباب وأنماط الطبيعة المختلفة، أنواعٌ من الأسباب والطبيعة المنتظمة المنسقة المختلفة . وهكذا تستمر سلسلةُ موهومة ممتنعة لا معنى لها ولا نهاية! وهذا من أعجب عجائب الجهل وأتعسه!!

الإشارة الخامسة:

لقد أثبتنا في مواضع متعددة من الرسائل وببراهين دامغة: أن الاستقلال والانفراد من أخص خصائص الحاكمية، حتى إن هذا الإنسانَ الذي هو عاجزٌ عجزاً شديداً، ولا يملك من الحاكمية سوى ظل باهت، نراه يردّ بكل قوة أيَّ فضول كان من الآخرين، ويرفض بكل شدة أي تدخل كان منهم في شؤونه، صوناً منه لاستقلاله وانفراده في الأمر. بل ذُكِر في التاريخ أن كثيراً من السلاطين قد سفكوا دماءً زكية لأبنائهم الأبرياء وإخوانهم الطيبين حينما شعروا بتدخلٍ منهم في شؤونهم.

إذن فالاستقلال والانفراد ورفضُ مداخلة الآخرين هو من أخصّ خصائص الحاكمية الحقة، لا فكاك لها عنه. بل هو لازمها ومقتضاها الدائم. فالحاكمية الإلهية التي هي في ربوبية مطلقة تردّ بكل شدة الشرك والاشتراك مهما كان نوعه، ولا تقبل تدخلاً ما

من سواها قط. ومن هنا نرى القرآن الكريم يفيض في بيان التوحيد الخالص ويردّ الشرك والمشاركة بأسلوب شديد وبتهديد مروّع.. فكما اقتضت الحاكمية الإلهية -التي هي في الربوبية المطلقة- التوحيدَ والوحدانية بقطعية تامة، وأظهرت مقتضىً شديداً وداعياً قوياً لها، كذلك النظامُ المتقن والانسجامُ البديع المشاهَدان في الكون -ابتداءً من النجوم والنباتات والحيوانات والأرض والمعادن وانتهاء بالجزئيات والأفراد والذرات- كلٌّ منهما شاهدُ عدلٍ، وبرهان باهر على تلك الوحدانية والفردية، فلا يسمح قط لريبة أو لشبهة، إذ لو كان هناك تدخل مما سوى الواحد الأحد، لفسد هذا النظام البديع الرصين، واختل هذا التوازن المحكم المشاهَد في جميع أجزاء الكون، فصدق الله العظيم الذي قال: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)

نعم، لو كان هناك أي تدخل مهما كان لظهرت آثارُه باديةً، إلّا أن الدعوة الصريحة في الآية الكريمة: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ (الملك: ٣) تريك هذا النظام البديع بكل وضوح وجلاء حتى لا ترى ثغرةً ولا لبساً ولا نقصاً في جهة من الجهات ابتداءً من الذرات إلى المجرات.

إذن فالنظامُ الرصين في الكون، والانتظام الرائع في المخلوقات كافة، والموازنة الدقيقة بين الموجودات.. يظهر لنا التجليَ الأعظم لاسم الفرد ويشهد شهادةً واضحة على الوحدانية.

ثم إن أي مخلوق مهما كان صغيراً، إنما هو مثالٌ مصغر للكون كله ونموذجُه، وفهرسُه المختصر، بمقتضى تجلي الأحدية. فلا يكون مالكاً لذلك المخلوق الحي الصغير إلّا مَن كان بيده زمام الكون كله وله الأمر جميعاً. وحيث إن كل بذرة متناهية في الصغر ليست بأقلَّ إبداعاً في الخلق من شجرة ضخمة، وأن كل شجرة باسقة تضاهي في خلقها خلقَ الكائنات، وكل كائن حي صغير إنما هو بحكم عالَمٍ مصغّر وكونٍ صغير، فإن تجلي الأحدية هذا يجعل الشرك والاشتراك محالاً ممتنعاً.

ثم إن هذا الكون في ضوء هذا السر -سر الأحدية- ليس كلاً يستعصي على التجزئة وحدها، بل أيضاً هو كلّيٌّ من حيث الماهية، لا يقبل الانقسام والاشتراك والتجزئة وتدخّل الأيدي المتعددة قط. فإن كل جزء فيه بحكم جزئيٍّ وفردٍ منه، وكلُّ الكون هو بحكم الكلّي، فليس فيه موضع للاشتراك في أية جهة كانت.

فهذا التجلي الأعظم لاسم الفرد يثبت حقيقة التوحيد بهذا

السر للأحدية، بدرجة البداهة.

نعم، كما أنَّ اندماجَ أنواعِ الكائنات واندغامَها فيما بينها، وتوجّهَ وظيفة كلٍّ منها إلى عموم الكائنات مثلما يجعل الكونَ كلاًّ واحداً يستعصي على التجزئة قطعاً، من حيث الخلق والربوبية. كذلك الأفعال العمومية المحيطة بالكائنات والتي تظهر أثارُها وفعالياتُها في الكائنات عموماً تجعل الكونَ أيضاً كلاًّ واحداً -من حيث تداخلها ببعضها- حتى يرفض التجزئةَ ويردّها ردّاً قوياً. ولتوضيح ذلك نسوق المثال الآتي:

حالما تُوهب الحياةُ للكائن يظهر فعلُ الإعاشة والإرزاق فيه مباشرة. وضمن أفعال الإعاشة والإحياء هذه، يشاهَد مباشرةً فعلُ تنظيمِ جسدِ ذلك الكائن وتنسيق أعضائه، وتجهيزه بما يحتاج ويلزم. وحينما تظهر أفعالُ الإعاشةِ والإحياء والتنظيم والتجهيز يفعل التصويرُ والتربية والتدبير فعلَه في الوقت نفسه.. وهكذا.

فتداخلُ أمثال هذه الأفعال المحيطة العامة بعضِها بالبعض الآخر، وإتحادُها ببعضها، وامتزاجُها كامتزاج الألوان السبعة في الطيف الشمسي، ثم إحاطةُ كل فعل من تلك الأفعال وشمولُه -مع وحدته من حيث الماهية- للموجودات كلها في وحدة واحدة، وكونُ

كل فعلٍ منها فعلاً وحدانياً.. يدل دلالة واضحة على أن فاعلَه واحدٌ أحد فرد..

وكما أن استيلاءَ كل فعل -من تلك الأفعال- وهيمنتَه على الكائنات قاطبة، واتحادَه مع سائر الأفعال في تعاون وثيق، يجعل الكون كلاًّ غير قابل للتجزئة.. كذلك فإن كل مخلوق حي من حيث كونه بمثابة بذرةِ الكون وفهرسِه ونموذجِه يجعل الكون كلياً غير قابل للانقسام والتجزئة -من حيث الربوبية- بل يجعل انقسامه محالاً وخارجاً عن الإمكان، أي أن الكون بهذا هو كلٌّ لا يتجزأ، فلا يكون إذن ربُّ الجزء إلّا من كان ربًّا للكل. وهو كليٌّ أيضاً بحيث يكون كلُّ جزء منه بحكم فرد، فلا يكون ربًّا للفرد الواحد إلّا من كان زمام ذلك الكلي بيده.

الإشارة السادسة:

كما أن انفراد الله سبحانه وتعالى بالربوبية، وتوحيدَه بالألوهية هو أساس جميع الكمالات[٢٦] ومنشأ المقاصد السامية،

---

[٢٦] حتى إن التوحيد هو نفسه أوضح برهان، وأسطع دليل على الكمال والجمال الإلهي، لأنه إذا عُرف أن صانع الكون واحد أحد، فسيُعرف جميع أنواع الكمال والجمال المشاهدة في الوجود، بأنها ظلال وتجليات وعلامات

ومنبع الحِكَم المودَعة في خلق الكون، كذلك هو الغايةُ القصوى، والبلسمُ الشافي، لتطمين رغبات كل ذي شعور وذي عقل ولاسيما الإنسان، فلولا «الفردية» لانطفأت شعلةُ رغباته ومطالبه كلِّها وانمحت جميعُ الحِكَم المودَعة في خلق الكون، وتلاشت أكثرُ الكمالات الموجودة والثابتة وانعدمت.

فمثلا: إنَّ رغبة حبِّ البقاء بل عشقه، عميقةٌ في الإنسان.. هذه الرغبة العريقة لا يحققها ولا يسكّنها ويُطمئنُها إلاّ مَن هو مالك لمقاليد الكون، الذي يفتح باب البقاء السرمدي أمام الإنسان بالآخرة، بعد أن يُنهي هذه الدنيا الفانية ويغلق أبوابَها كسهولة غلق غرفة وفتح أخرى.

وهناك رغبات أخرى كثيرة جداً للإنسان أمثال هذه الرغبة، كلُّها ممتدة إلى غير نهاية معلومة ومتشعبة في ثنايا الكائنات جميعاً.. فهذه الرغبات جميعُها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحقيقة

لأنواع الكمال المقدس وأنماط الجمال المنزّه لذلك الصانع الواحد الأحد لذلك الكمال المقدس والجمال المنزه، بينما إذا لم يُعرف الصانعُ الواحد، فستحال تلك الكمالات وأنواع الجمال إلى الأسباب التي لا شعور لها وإلى مخلوقات عاجزة، وعندها يحار العقل البشري أمام خزائن الكمال والجمال السرمديين، لأنه فقد مفتاح تلك الكنوز الخالدة. (المؤلف).

التوحيد، ومشدودة مع سر «الفردية». فلولا ذلك السرّ لبقيت هذه الرغبات عقيمةً دون نتائج، قاصرةً عن بلوغ مداها، مبتورة منكمشة. ولولا تصرف الواحد الأحد في الكون كله لما اطمأنّت ولا حصلت تلك الرغبات، ولو حصلت حصلت مبتورة.

فالإيمان بالوحدانية، وبقدرة «الفرد الواحد الأحد» المطلقة إذن هو وحدَه الكفيل بإحلال الطمأنينة والسكون في تلك الرغبات المتأججة لدى الإنسان. من أجل هذا السر العظيم نرى القرآن الكريم يذكر التوحيد والوحدانية بكل حرارة وشوق، ويكررها بكل حلاوة وذوق، وأن الأنبياء -عليهم السلام- والأصفياء والعلماء والأولياء الصالحين يجدون بغيتهم وذوقهم السامي، بل منتهى سعادتهم في أفضل ما قالوه: «لا إله إلّا هو».

الإشارة السابعة:

إنَّ هذا التوحيد الحقيقي، بجميع مراتبه، وبأتمّ صورته الكاملة، قد أثبته وأعلنه وفهّمه وبلّغه محمدﷺ، فلابد أن رسالته ثابتةٌ وقاطعة كقطعية ثبوت التوحيد نفسه؛ لأنه: لما كان التوحيدُ هو أعظم حقيقة في عالم الوجود، وأن الرسول الأعظم ﷺ هو الذي تولى تبليغَه وتعليمه بجميع حقائقه، فلابد أن جميع البراهين

التي تثبت التوحيد، تكون بدورها براهينَ لإثبات رسالته وأدلةً على صدق نبوته وأحقّية دعوته ﷺ، فرسالةٌ كهذه الرسالة العظمى التي تضم أُلوفاً من أمثال هذه الحقائق السامية وتكشف عن حقيقة التوحيد وترشد إليه وتلقنه، لا شك أنها رسالة يقتضيها ذلك التوحيد وتلك الفردية. فمَن ذا غيرُ محمد ﷺ الذي أدّى الأمانة على أفضل وجه وبلّغ الرسالة على أجمل صورة؟.

سنذكر ثلاثة نماذج، مثالاً لتلك الأدلة الكثيرة والأسباب العديدة التي تشهد بعظمة الشخصية المعنوية لهذا النبي الكريم ﷺ وتدل على علوّ منـزلته الرفيعة، وتبيّن أنه السراج المنير لهذه الكائنات وشمسها الساطعة.

الدليل الأول: إنَّ ثواب جميع الحسنات التي ينالها جميعُ أفراد الأمة، وعلى مدى جميع العصور، مكتوبٌ مثلُه في صحيفة حسناته ﷺ، إذ هو السبب في نيل كل ثواب تناله أمتُه إلى يوم القيامة، حيث «السبب كالفاعل».. تأمل في هذا ثم فكّر في المقام المعظم اللائق الذي يقتضيه مجموعُ الأدعية غير المحدودة من الصلوات المقبولة المرفوعة يومياً من الأمة كافة.. تدرك عندئذٍ، درجته العالية الرفيعة وتفهم أن شخصيته المعنوية شمسُ الكائنات

والسراج المنير للخلق أجمعين.

الدليل الثاني: إنَّ بذرة الشجرة الوارفة للإسلام، ومنشأها، وحياتَها، ومنبعها إنما هي حقيقة الماهية المحمدية، بما تملك من فطرة سامية، وخلقة كاملة. فتذكّر هذا ثم فكّر في الرقي الروحي لهذا الرسول الحبيب ﷺ النابع من استشعاره الكامل الأتم لجميع معاني عبادته، وأذكاره، وكلماته الشريفة ومراتبها، والذي يمثل بمجموعه روحَ الإسلام وحقيقتَه. لتعلم مدى علو مرتبة ولاية عبوديته ﷺ إلى الدرجة الرفيعة، درجة الحبيبية. وافهم مبلغَ سموّها.

ولقد فتح الله عليّ يوماً في سجدةٍ في صلاةٍ، بعض المعاني والأنوار المشعة من كلمة (سبحان ربي الأعلى) بما يقرب من فهم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين من هذه الكلمة المقدسة. فتبين لي يقيناً أنها خيرٌ من عبادة شهر، فأدركتُ بها المنـزلة العظيمة والدرجة العالية التي يحظى بها الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

نعم، إنَّ الأنوار التي تشعها الكلماتُ المقدسة، وفيوضاتُها في بدء الإسلام لها مزايا خاصة، وذلك لجدّتها، ولها من اللطافة

والطراوة واللذة ما تتناقص بمرور الزمن وتتستر تحت ستار الغفلة.

والآن، وفي ضوء ما سبق تأمل مكانة الرسول الكريم ﷺ الذي تناول الكلام المقدس، ورَشَفَه من المنبع الأقدس، واستوعب أنواره بالوحي الإلهي بكامل جدّتِه وطراوته ولطافته. مع ما فُطر عليه من استعداد كامل.. فالأنوار والفيوضات الكامنة في تسبيحةٍ واحدة منه ﷺ هي خيرٌ وأعمّ من جميع الأنوار التي تملأ أرجاء عبادة سنة كاملة عند غيره.!.

قِس على هذا المنوال، كي تعلم كم بلغ رسولُنا الحبيب ﷺ من درجات الكمال التي لا حد لها ولا نهاية.

الدليل الثالث: إنَّ الإنسان يمثل أعظم مقصد من المقاصد الإلهية في الكون، وهو المؤهَّل لإدراك الخطاب الرباني. وقد اختاره سبحانه من بين مخلوقاته، واصطفى من بين الإنسان المكرّم مَن هو أكملُ وأفضل وأعظم إنسان بأعماله وآثاره الكاملة، ليكون موضعَ خطابه الجليل باسم النوع الإنساني كافة، بل باسم الكائنات جميعاً. فلا ريب أن الله سبحانه الفرد الجليل الذي هيأ رسوله الحبيب ﷺ لهذه المرتبة اللائقة به قد منحه من الأنوار

والكمالات ما لا يحد بحدود.

وهكذا وبمثل هذه الدلائل الثلاثة ودلائل أخرى كثيرة يَثبت لدينا يقيناً: إن الشخصية المعنوية للرسول الكريم ﷺ، شمس معنوية ساطعة للكائنات. وسراج منير لامع لها، كما أنها الآية العظمى من قرآن الكون، والاسم الأعظم للفرقان الأعظم، ومرآة صافية للتجلي الأعظم لأنوار اسم «الفرد» عزّ وجل.

فاللّهم يا أحدُ، يا فردُ، يا صمدُ، أنزِل من بركات خزينة رحمتك التي لا تنفد صلواتٍ وسلاماً على تلك الذات النبوية الشريفة، بعدد ذرات الكون مضروباً بعدد عاشرات جميع أزمنة الكون.

﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾

الرسالة الثانية عشرة [٢٧]

الرسالة القيمة

نُقْطَةٌ

مِنْ نُورِ مَعْرِفَةِ ٱللهِ جَلَّ جَلَالُهُ

إيضاح

إذا ما دخلتُ بستانا فلا أجني إلّا الأجوَدَ من الثمرات، حتى إذا ما تعبتُ في قطفها أجد المتعة واللذة. ولو وقع نظري على الفاسدة منها، أصرفه عنها، آخذا بالقاعدة: »خذ ما صفا دع ما كدر«... هكذا أنا، فأرجو أن يكون قرّائي أيضا مثلي.

يقال: إنَّ كلامَك لا يُفهم بوضوح.

- نعم، ما حيلتي.. هكذا ترد السانحاتُ إلى القلب.. فبينما أجدني كأنني أتكلم فوق منارة عالية، إذا بي -في أحيان أخرى- أُنادي من قعر بئر عميقة.

---

(٢٧) طبعت هذه الرسالة باللغة التركية لأول مرة بمطبعة »أوقاف« بإسطنبول سنة ١٣٣٧هـ (١٩١٨م) على أبواب ثلاثة، ولم يدرج الأستاذ المؤلف هنا إلّا الباب الأول منها فترجمناه كاملا.

فيا قارئي العزيز! أرجو أن تلاحظ في هذه الرسالة:

أنَّ المتكلم: هو قلبي العاجز.

أما المخاطَب: فهو نفسي العاصية.

بينما المستمع: هو ذلك الياباني[٢٨] الذي يتحرى الحقيقة.

وسنشير في هذه الرسالة إلى ما نقصده بالذات، وهو التوحيد، في أربعة براهين عظيمة من بين براهينه التي لا تُحصر.

آمنت بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره من الله تعالى، والبعث بعد الموت حق.

أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله.

سعيد النورسي

---

[٢٨] حضر القائد العام الياباني الجنرال(Nogi Maresuke) إسطنبول سنة ١٩٠٧م. أي أواخر حكم السلطان عبد الحميد الثاني، ووجّه جملة من الأسئلة حول العقيدة وعلامات الساعة إلى المشيخة الإسلامية، فوجّه العلماء بدورهم تلك الأسئلة مع أسئلة أخرى إلى الأستاذ النورسي، أورد قسما من أجوبته التي تخص العقيدة في المقالة الثالثة في مؤلفه »المحاكمات«، وفصله في رسالة »نقطة من معرفة الله جل جلاله«، وخصّ »الشعاع الخامس« للأجوبة التي تخص أشراط الساعة والدجال.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه أجمعين.

إن مقصودنا ومطلوبنا هو: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ (البقرة:٢٥٥) فمن بين براهينه الكلّية التي لا تُعدّ نورد هنا أربعة منها:

البرهان الأول : هو محمد ﷺ. (وقد بسطنا هذا البرهان في رسالة «شعاعات»).[٢٩]

البرهان الثاني : هذا الكون وهذا الإنسان الأكبر، ذلك الكتاب الكبير المنظور.

البرهان الثالث : هو القرآن الكريم.. ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه وهو الكلام المقدس.

البرهان الرابع : الوجدان الحي، أو الفطرة الشاعرة، الذي يمثّل البرزخَ ونقطةَ اتصال عالَمي الغيب والشهادة. فالفطرةُ

---

[٢٩]« شعاعات من معرفة النبي ﷺ» رسالة صغيرة من مؤلفات سعيد القديم.

الشاعرة أو الوجدان نافذةٌ إلى العقل يُنشر منها شعاعُ التوحيد.

البرهان الأول : وهو حقيقة محمد ﷺ

تلك المجهَّزة بالرسالة والإسلام، فمن حيث الرسالة تتضمن شهادةَ أعظمِ إجماعٍ وأوسعِ تواترٍ لجميع الأنبياء عليهم السلام. ومن حيث الإسلام تحمل روحَ الأديان السماوية كلها وتصديقَها المستند إلى الوحي.

فالرسول الكريم ﷺ يبين للبشرية جمعاء وجودَ الله ووحدانيته في جميع أقواله الصادقة المصدّقة بمعجزاته الباهرة، وبشهادة الأنبياء عليهم السلام وتصديق الأديان كلها. فهو ﷺ يُظهر ذلك النورَ باسم المصطفين الأخيار من البشرية الذين اتحدوا في هذه الدعوة.

تُرى هل يمكن أن يتسلل الباطلُ إلى مثل هذه الحقيقة الباهرة التي تنال هذا القدرَ من التصديق، وتبصرها العيونُ النافذة في الحقائق، فتراها واضحة جلية خالصة لا شائبة فيها؟.. كلا.. ثم كلا.

البرهان الثاني: وهو كتاب الكون

نعم، إن حروفَ هذا الكتاب ونقاطه فردا فردا أو مجموعة،

يتلو كلٌّ بلسانه الخاص: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ (الإسراء:٤٤). ويبيّن وجودَ الخالق العظيم ووحدانيته.. فكلُّ ذرة في الكون تشهد شهادة صادقة على وجوب وجود الخالق الحكيم جلّ جلالُه. فبينما تراها تتردّد بين إمكانات واحتمالات غير متناهية، في صفاتها وذاتها وأحوالها ووجودها، إذا بها تنتعش وتسلك طريقا معينا، وتتصف بصفة معينة، وتتكيف بحالة منتظمة، وتسير وفق قانون مسدَّد، وتتوجه إلى قصد معين.. فتنتج حِكَما ومصالحَ تُبهر الألباب.. فتزيد سطوعَ الإيمان بالله في اللطيفة الربانية الممثِّلة لنموذج عوالم الغيب في الإنسان. أفلا تنادي الذرةُ بلسانها الخاص وتصرّح بقصد صانعها الجليل، وبحكمته البالغة؟ فكلُّ ذرة من الذرات كما أنها تدل على الخالق الحكيم بوجودها المنفرد وبصفاتها الخاصة وبكيفياتها المعينة: فإن هذه الدلالة تتزايد، باعتبار كون الذرة جزءا من مركباتٍ متداخلة متصاعدة، ومن حيث الإمكانات والاحتمالات التي تسلكها، إذ لها في كل مركّب مقامٌ، وفي كل مقام نسبةٌ معينة وارتباط معين، وفي كل نسبة لها وظيفةٌ خاصة، وفي كل موقع تحافِظ على التوازن العام، وفي كل وظيفة تثمر مصالحَ شتى وحِكما عديدة. في كل مرتبة إذن تتلو الذرةُ بلسانها الخاص دلائلَ وجوب وجود صانعها الجليل وتُظهر

قصدَ خالقها الحكيم، وكأنها ترتّل الآيات الكريمة الدالة على الوحدانية. مَثلُها في هذا كمثل الجندي الذي له وظيفة معينة وارتباط خاص مع كلٍّ من فصيله وفرقته والجيش كله.. ألاَ تكون إذن البراهينُ الدالة على الله سبحانه وتعالى أكثر بكثير من عدد ذرات الكون، فما يُقال من أن: «الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق» إنما هي حقيقة صادقةٌ لا مبالغة فيها قط، بل قد تكون قاصرة.

سؤال: لماذا لا يَرى الجميعُ بعقولهم الخالقَ العظيم؟

الجواب: لكمال ظهوره جلَّ وعلا، ولعدم الضد.

تَأَمَّلْ سُطُورَ الْكَائِنَاتِ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَلإِ الأعلى إِلَيكَ رَسَائِلُ

فهذا الكتاب الكوني العظيم يتجلى فيه النظامُ بوضوح تام بحيث يظهر النّظام كالشمس في رابعة النهار، فتظهر معجزةُ القدرة في كل كلمة أو حرف فيه. فتأليفُ هذا الكتاب البديع

فيه من الإعجاز الباهر بحيث لو فرضنا -فرضا محالا- أن كلَّ سبب من الأسباب الطبيعية فاعلٌ مختار، لسجدَت تلك الأسبابُ جميعا -بكمال العجز- أمام ذلك الإعجاز، قائلة: «سبحانك... لا قدرة لنا... إنك أنت العزيز الحكيم». فإنك ترى

أن في هذا الكتاب من النَّظم الدقيق المتشابك المتساند بحيث يلزم لإيجاد نقطة في مكانها الصحيح قدرةٌ مطلقة تستطيع إيجاد الكون كلِّه، وذلك لأن كل حرف من حروفه -ولاسيما ما كان ذا حياة- له وجهٌ ناظر إلى كل جملة من جُمل الكتاب، وله عينٌ شاخصة إليها، بل إن كل كلمة فيه لها ارتباط وثيق مع كلمات الكتاب كلها..

فالذي خلق عينَ البعوضة إذن هو خالقُ الشمس أيضا، والذي نظّم معدة البرغوث هو الذي ينظّم المنظومة الشمسية.

فإن شئت راجع كتاب «السانحات» لترى حقيقة الآية الكريمة: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ ﴾ (لقمان:٢٨). ولتشهد كيف يقطُر شهدُ الشهادة الصادقة من لسان معجزة القدرة، النحلِ، الذي يمثّل كلمةً صغيرة من هذا الكتاب. أو إن شئت فتأمل في نقطةٍ من هذا الكتاب، في حيوان مجهري لا يُرى بالعين المجردة، لتشهد كيف أنه يمثل نموذجا مصغرا للكائنات. فالذي كتَبَه على هذه الصورة المعجزة كتب الكائنات. فلو أمعنت النظر فيه لرأيته يضم من المكائن الدقيقة والأجهزة البديعة ما يُثبت لك يقينا؛ أنه لا يمكن أن يفوَّض أمرُه إلى الأسباب الجامدة البسيطة الطبيعية التي لا تميز بين الإمكانات، إلّا إذا

توهمتَ أن في كل ذرة شعورَ الحكماء وحكمةَ الأطباء ودهاءَ الساسة والحكام، وأنها تتحاور فيما بينها دون وساطة!! وما هذا إلاّ خرافة يخجل منها الخرافيون. فلا يمكن أن تكون تلك الماكنة الحية الصغيرة إذن إلّا معجزة قدرة إلهية. ألَا ترى أن العقول تنبهر أمامها؟ فهي إذن ليست من صنع الأسباب الطبيعية، بل من إبداع مَن يقدر على إيجاد الكائنات كلها وينظم شؤونها، إذ هو محال أن يجتمع أُس أساس تلك الأسباب المادية وهو: القوة الجاذبة والقوة الدافعة معا في جزء لا يتجزأ للقيام بتلك الصنعة الحكيمة.

نعم، إن ما يظنونه أساسا لكل شيء من جذب ودفع وحركة وقوة وأمثالها، إنما هو ناموسٌ إلهي يمثل قوانين عادات الله، واسم لها. فهذه القوانين مقبولةٌ بشرط ألّا تنتقل من

كونها قاعدةً إلى طبيعة فاعلة، ومن شيء ذهني إلى حقيقة خارجية، ومن أمرٍ اعتباري إلى حقيقة مشهودة، ومن آلةِ قياس إلى مؤثر حقيقي.

سؤال: مع أن هذه الشهادة قاطعة، فكيف إذَن يعتقد البعضُ بأزلية المادة، وتشكُّل الأنواع من حركات الذرات (أي بالمصادفة) وأمثالها من الأمور؟

الجواب: لمجرد إقناع النفس بشيء آخر -غير الإيمان بالله- ، ولأنهم لا يدركون فساد الفكرة بالنظر السطحي التقليدي، ينشأ لديهم هذا الاحتمالُ. ولكن إذا قصَد الإنسانُ وتوجّه بالذات إلى إقناع نفسه، فلابد أنه سيقف على محالية الفكرة وبُعدها عن المنطق والعقل. ولو اعتقد بها فلا يعتقد إلّا بسبب التغافل عن الخالق سبحانه. فما أعجبَ الضلالَ!. إنَّ مَن يضيق عقلُه عن أزلية الله سبحانه وإيجادهِ الأشياء كلها -وهي صفة لازمة ضرورية للذات الجليلة- كيف يعطي تلك الأزلية والإيجاد إلى ذرات غير متناهية وإلى أشياء عاجزة؟. فلقد اشتهرت حادثة: أنه بينما كان الناس يراقبون هلال العيد، ولم يره أحدٌ، إذا بشيخ هرم يحلف أنه قد رأى الهلال، ثم تبين أن ما رآه لم يكن هلالا بل شعرة بيضاء مقوسة قد تدلت من حاجبه! فأين تلك الشعرة من الهلال؟ وأين حركات الذرات من تشكيل الأنواع؟

إنَّ الإنسان لكونه مكرّما فطرةً يبحث عن الحق دوما، وأثناء بحثه يعثر على الباطل أحيانا فيخفيه في صدره ويحفظه. وقد يقع الضلالُ -بلا اختيار منه- على رأسه أثناء تنقيبه عن الحقيقة، فيظنه حقا، فيلبسه كالقلنسوة على رأسه!

سؤال: ما هذه «الطبيعة» و«القوانين» و«القوى» التي

يسلّون بها أنفسهم؟

الجواب: إنَّ الطبيعة هي شريعة إلهية كبرى أوقعت نظاما دقيقا بين أفعالِ وعناصرِ وأعضاءِ جسد الخليقة المسمى بعالم الشهادة. هذه الشريعة الفطرية هي التي تسمى بـ«سنة الله» و«الطبيعة» وهي محصلةُ وخلاصةُ مجموعِ القوانين الاعتبارية الجارية في الكون.

أما ما يسمونه بـ«القوى» فكل منها هو حُكمٌ من أحكام هذه الشريعة.

و«القوانين» كل منها عبارة عن مسألة من مسائلها.

ولكن لاستمرار أحكام هذه الشريعة واطّراد مسائلها توهَّم الخيالُ فجسّمها في «الطبيعة» واعتبرها موجودا خارجيا مؤثّرا وحقيقةً واقعية فاعلة، بينما هي أمر اعتباري ذهني.

فترى النفوسُ التي ترى الخيالَ حقيقةً والأمرَ الاعتباري الذهني أمرا خارجيا ألبَست هذه الطبيعة طورَ المؤثر الحقيقي. والحال لا يقنع القلبُ بأي مبرر، ولا يعجب الفكر بأي مسوغ، بل لا تأنس الحقيقة بكون هذه الطبيعة الجاهلة مصدرا للأشياء. فما ساقهم إلى هذه الفكرة غير المعقولة إلّا توهمُهم إنكار الخالق

الجليل، وذلك لعجزهم عن إدراك آثار قدرته المعجزة المحيرة للعقول.

فالطبيعة؛ مطبعةٌ مثالية وليست طابعة، نقشٌ لا نقاشة، قابلة للانفعال لا فاعلة، مِسطر لا مصدر، نِظام لا نَظّام، قانون لا قدرة، شريعة إرادية لا حقيقة خارجية.

فلو قدِم شخص في ريعان الشباب إلى هذا العالم البديع مباشرة، ودخل قصرا فخما مزينا بأروع الآثار، وافترض لنفسه أن ليس هناك من أحد خارج البناء قد قام بتشييده وتزيينه، وبدأ يتحرى السبب الفاعل في أرجاء القصر، ووقع بصرُه على كتاب جامع لأنظمة القصر وخارطته، فإنه يتصور -من جهله- أن هذا الكتاب هو الفاعل، لما ينعكس في شعوره من البحث عن علّة حقيقية، فيضطر إلى هذه العلة بسبب افتراضه الموهوم مقدما! وهكذا البعض يسلّي نفسه بالطبيعة بسبب تغافله عن الخالق الجليل، فيضطر إلى خداع نفسه بنفسه، ويتيه في مثل هذه الأمور الخارجة عن منطق العقل.

والشريعة الإلهية اثنتان :

إحداهما : الشريعة الآتية من صفة الكلام التي تنظّم أفعال

العباد الاختياريةَ.

والثانية : الشريعة الآتية من صفة الإرادة التي تسمى بالأوامر التكوينية والشريعة الفطرية وهي محصلة قوانين عادات الله الجارية في الكون.

فكما أن الشريعة الأولى عبارة عن قوانين معقولة، فإن الشريعة الثانية أيضا عبارة عن مجموع القوانين الاعتبارية، والتي تسمى -خطأً- بالطبيعة فهذه القوانين لا تملك التأثير الحقيقي ولا الإيجاد اللذين هما من خواص القدرة الإلهية.

ولقد شرحنا -أثناء بياننا التوحيد- أن كل شيء مرتبط بالأشياء جميعا، فلا شيء يحدث من دون الأشياء جميعا. فالذي يخلق شيئا قد خلق جميع الأشياء، لذا فليس الخالق لشيء إلّا الواحد الأحد الصمد. بينما الأسباب الطبيعية التي يسوقها أهل الضلالة هي متعددة، فضلا

عن أنها جاهلة لا يعرف بعضها بعضا. علاوة على أنها عمياء، وليس بين يديها إلّا المصادفة العمياء.. فـ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ (الأنعام:٩١).

الخلاصة: أنَّ الإعجاز الباهر الظاهر في النظام والتناسق

والاطراد المشاهَد في كتاب الكون الكبير -وهو برهاننا الثاني على التوحيد- يظهر بوضوح تام كالشمس الساطعة أنّ الكون وما فيه ليس إلّا آثار قدرة مطلقة وعلم لا يتناهى وإرادة أزلية.

سؤال: بمَ يثبت النظام والانتظام والتناسق؟

الجواب: إنَّ العلوم الكونية التي توصل إليها الإنسانُ، هي كالحواس لنوع الإنسان وكالجواسيس تكشف له عن مجاهيلَ لا يصلها بنفسه. فبالإستقراء التام يمكنه أن يتوصل إلى كشف ذلك النظام بتلك الحواس والجواسيس. فكل نوع من أنواع الكائنات قد خصّ بعلم أو في طريقه إلى ذلك، لذا يُظهر كلُّ علمٍ ما في نوعه من انتظام ونظام بكليّة قواعده، لأنَّ كل علم في الحقيقة عبارة عن دساتير وقواعد كلية. وكليةُ القواعد تدل على حسن النظام؛ إذ ما لا نظام له لا تجري فيه الكليةُ. فالإنسان مع أنه قد لا يحيط بنفسه بالنظام كلّه إلّا أنه يدركه بجواسيس العلوم، فيَرى أن الإنسانَ الأكبر -وهو العالَم- منظَّمٌ كالإنسان الأصغر سواءً بسواء. فما من شيء إلّا ومبنيّ على أُسس حكيمة، فلا عبث، ولا شيء سدىً. فبرهانُنا هذا ليس قاصرا -كما ترى- على أركان الكائنات وأعضائها، بل يشمل الخلايا وجميع الكائنات الحية، بل يشمل الذرات جميعا، فكلها لسانٌ ذاكر يلهج بالتوحيد، والجميعُ

يذكرون معا: «**لا إله إلّا الله**».

البرهان الثالث: هو القرآن الحكيم

إذا ما ألصقتَ أذنك إلى صدر هذا البرهان الناطق ستسمع حتما أنه يردد: «لا إله إلّا هو». فبرهانُنا هذا يمثل شجرة عظيمة متشعبة الأغصان والفروع، تتدلى منها ثمرات الحق والحقيقة من كل جانب بغزارة ووفرة وحيوية، بحيث لا تدع لأحد أن يداخله ريبٌ من أن بذرتها الأصيلة -وهي التوحيد- قوية، حقة، حية؛ إذ لا يخفى أن البذرة الفاسدة لا تؤتي شجرتُها الثمار الغضة كل حين.

أما غصن هذه الشجرة الوارفة الممتدُ إلى عالم الشهادة. فهو يحمل أثمار الأحكام الصائبة الحقة، مثلما أن الغصن العظيم الممتد إلى عالم الغيب غنيٌّ بالثمرات اليانعة الحقة للتوحيد والإيمان بالغيب.

فإذا ما شُوهد هذا البرهان العظيم من جميع جوانبه عُلِم يقينا أنَّ الذي يعلنه واثق كل الثقة، من نتيجته -وهي التوحيد- ومطمئن اطمئنانا لا يشوبه تردد قط، إذ يبني جميع الأمور على هذه النتيجة الرصينة، بل يجعلها حجر الزاوية لكل شيء في الوجود..

فمثل هذا الأساس الراسخ لا يمكن أن يكون تكلّفا وتصنّعا البتة، بل يجعل الإعجاز الباهر على هذا البرهان مستغنيا عن تصديق الآخرين له، فأنباؤه كلها صدق، ثابتة وحق وحقيقة بنفسها.

نعم، إن الجهات الست لهذا البرهان المنير شفافة رائقة، فعليه: الإعجاز الظاهر، وتحته: المنطق والدليل، وفي يمينه: استنطاق العقل، وفي يساره: استشهاد الوجدان، أمامُه وهدفه: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، نقطة استناده: الوحي المحض.. أفيجرأ وهْمٌ أن يقتحم هذا الحصن الحصين؟

وهناك أصول أربعة للعروج إلى عرش الكمالات وهو «معرفة الله» جلّ جلاله:

أولها : منهج الصوفية، المؤسَّس على تزكية النفس والسلوك الإشراقي.

ثانيها : منهج علماء الكلام المبني على «الحدوث والإمكان» في إثبات واجب الوجود.

ومع أن هذين الأصلين قد تشعبا من القرآن الكريم، إلّا أن البشر قد أفرغهما في صور شتى، لذا أصبحا منهجين طويلين، وذوَيْ مشاكل، فلم يبقيا مصانين من الأوهام والشكوك.

ثالثها : مسلك الفلاسفة المشوب بالشكوك والشبهات والأوهام.

رابعها وأَولاها: طريق القرآن الكريم الذي يعلنه ببلاغته المعجزة وبجزالته الساطعة، فلا يوازيه طريق في الاستقامة والشمول، فهو أقصر طريق إلى الله وأقربه إلى الله وأشمله لبني الإنسان.

ولبلوغ عرش هذا الأصل هناك أربع وسائل: الإلهام، التعليم، التزكية، التدبر.

هذا وإن للقرآن الكريم في معرفة الله سبحانه، وإثبات وحدانيته طريقين:

الأول : دليل العناية والغاية

إنَّ جميع الآيات الكريمة التي تعدّ منافعَ الأشياء، وتذكر حِكَمها، هي نسّاجة لهذا الدليل، ومظاهر لتجلي هذا البرهان.

وزبدة هذا الدليل هي: إتقان الصنع في النظام الأكمل في الكائنات، وما فيها من رعاية المصالح والحِكم، إذ النظام المندمج في الكائنات، وما فيه من رعاية المصالح والحِكم، يدل على قصد الخالق الحكيم وحكمته المعجزة، وينفي نفيا قاطعا وَهمَ المصادفة

والاتفاق الأعمى. لأن الإتقان لا يكون دون اختيار. فكل علم من العلوم الكونية شاهدُ صدق على النظام، ويشير إلى المصالح والثمرات المتدلية كالعناقيد في أغصان الموجودات، ويلوّح في الوقت نفسه إلى الحِكم والفوائد المستترة في ثنايا انقلاب الأحوال وتغيّر الأطوار.

فإن شئت فانظر إلى علم الحيوان والنبات. فقد ثبت فيهما أن الأنواع التي يزيد عددها على مئتي ألف نوع، كلٌّ له أصل معيّن، وجدّ أكبر -مثلما الإنسان له أصل وهو آدم عليه السلام- وكل فرد من هذه الأنواع الوفيرة كأنه ماكنة بديعة عجيبة تبهر الأفهام. فلا يمكن أن تكون القوانين الموهومة الاعتبارية والأسباب الطبيعية العمياء الجاهلة، موجِدةً لهذه السلاسل العجيبة من الأفراد والأنواع. أي إن كل فرد، وكل نوع، يعلن بذاته أنه صادرٌ مباشرةً من يد القدرة الإلهية الحكيمة.

ويذكّرنا القرآن الكريم بهذا الدليل، في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ (الملك:٣) بل يبيّنه على أفضل وأكمل وجه، إذ كما أنه يأمرنا بالتفكر في المخلوقات فإنه يقرّر في الأذهان هذا الدليل (دليل العناية) بتعداده الفوائد والنعم، ومن بعد ذلك

الإحالة إلى العقل في خواتيم الآيات وفواصلها. فينبه العقلَ ويحرك الوجدان في أمثال هذه الآيات: ﴿**أوَ لا يعلمون**﴾ ﴿...**أفلا يعقلون**﴾ ﴿...**أفلا تتذكرون**﴾ ﴿..**فاعتبروا**..﴾ .

الدليل القرآني الثاني : هو دليل الاختراع

وخلاصته : أنَّ الله تعالى أعطى لكل فرد ولكل نوع، وجودا خاصا، هو منشأُ آثاره المخصوصة، ومنبعُ كمالاته اللائقة، إذ لا نوعَ يتسلسل من الأزل. لأنه من الممكنات، ولبطلان التسلسل. وأن الحقائق لا تنقلب بل ثابتة، والأنواع المتوسطة لا تدوم سلاسلُها، أما تحوُّل الأصنافِ فهو غير انقلاب الحقائق، إذ ما يسمّونه من تغيّر صوَرِ المادة ما هو إلّا حادث، لأن حدوث بعضها مشهود، وبعضها الآخر يثبت بالضرورة العقلية. فالقوى والصور من حيث إنها عرضية لا تشكّل التباين الجوهري الموجود في الأنواع. فلا يكون العرَض جوهرا.

ففصائل الأنواع إذن وميزات عموم الأعراض وخواصها قد أُبدع واختُرع من العدم البحت، أما التناسل في السلسلة فهو من الشرائط الاعتبارية الاعتيادية. فيا عجبا كيف تستوعب أذهانُ الضلالة أزليةَ المادة -وهي تنافي الأزلية قطعا- بينما تعجز تلك

الأذهان عن إدراك أزلية الخالق الجليل التي هي مِن ألزمِ صفاته الضرورية؟

ثم كيف وَجَدت الذراتُ المتناهية في الصغر قوةً وثباتا بحيث تقاوم أوامر القدرة الإلهية وتبقى أزلية، بينما الكون بعظمته منقاد إلى تلك الأوامر انقيادَ طاعة وخضوع؟ وكيف يُسنَد الإبداع والإيجاد -وهما من خواص القدرة الإلهية- إلى أعجزِ شيءٍ وأهونِه وهو الأسباب؟

فالقرآن الكريم يرسّخ هذا الدليل في آياته التي تبحث عن الخلق والإيجاد، ويقرر أن لا مؤثر إلّا الله وحده. فالأسباب لا تأثير لها تأثيرا حقيقيا، وإنما هي ستائرُ أمام عزة القدرة وعظمتها، لئلا يَرى العقلُ مباشرةَ يد القدرة بالأمور الخسيسة بنظره الظاهر، إذ إن لكل شيء جهتين:

إحداهما: جهة المُلك، وهي كالوجه الملوَّن المطليّ للمرآة، تَرِدُه الأضدادُ، وتصبح حقيرة، عظيمة، قبيحة، شريرة.. إلخ. فالأسباب في هذا الوجه موجودة لأجل إظهار العظمة والعزة.

والجهة الثانية: جهة الملكوت، وهي كالوجه الشفاف للمرآة. هذه الجهة جميلة في كل شيء، إذ لا تأثير للأسباب فيها،

فالوحدانية تقتضي هذا. وحيث إن كلا من الحياة والروح والنور والوجود قد خرج من يد القدرة الإلهية دون وساطة فالوجهان شفافان جميلان، أي جميل مُلكا وملكوتا.

البرهان الرابع: هو وجدان الإنسان المسمى بالفطرة الشاعرة

لاحظ النكات الأربع التالية:

أولاها: أنَّ الفطرة لا تَكذب، ففي البذرة مَيَلان للنمو، إذا قال: سأنبت، سأثمر، فهو صادق. وفي البيضة ميلان للحياة، إذا قال: سأكون فرخا، فيكون بإذن الله، وهو صادق. وإذا قال ميلانُ التجمد في غَرفة من ماء: سأحتل مكانا أوسع، فلا يستطيع الحديدُ -رغم صلابته- أن يكذّبه، بل صدقُ قوله يفتت الحديد. فهذه الميول إنما هي تجليات الأوامر التكوينية الصادرة من الإرادة الإلهية.

النكتة الثانية: لا تقتصر حواسُّ الإنسان الظاهرة والباطنة على الحواس الخمس المعروفة: حاسة السمع والذوق والبصر.. إلخ، وإنما له نوافذ كثيرة مطلّة إلى عالم الغيب، فله حواسُ كثيرة غير معلومة. أمثال حاسة السَوق وحاسة الشوق التي لا تَكْذِب

ولا تَزلّ.

النكتة الثالثة: لا يمكن أن يكون شيءٌ موهوم مبدءا لحقيقة خارجية؛ فنقطة الاستناد والاستمداد حقيقتان ضروريتان مغروزتان في الفطرة والوجدان، حيث إن الإنسان مكرم وهو صفوة المخلوقات، فلولاهما لتردى الإنسان إلى أسفل سافلين، بينما الحكمة والنظام والكمال في الكائنات يردّ هذا الاحتمال.

النكتة الرابعة: أنَّ الوجدان لا ينسى الخالق مهما عطّل العقلُ نفسَه وأهمل عمله، بل حتى لو أنكر نفسه، فالوجدان يبصر الخالق ويراه، ويتأمل فيه ويتوجه إليه. والحدس -الذي هو سرعة انتقال في الفهم- يحرّكه دائما. وكذا الإلهام -الذي هو الحدس المضاعف- ينوّره دوما. والعشق الإلهي يسوقه ويدفعه دوما إلى معرفة الله تعالى، ذلك العشق المنبعث من تضاعف الشوق المتولد من تضاعف الرغبة الناشئة من تضاعف الميلان المغروز في الفطرة. فالانجذاب والجذبة المغروز في الفطرة ليس إلّا من جاذب حقيقي.

وبعد ما تبين لك هذه النكات، أَمعِنْ في الوجدان لترى كيف أنه برهان مودَع في نفسِ كل إنسان يثبت التوحيد، ولتشاهد

أيضا أن قلب الإنسان مثلما ينشر الحياة إلى أرجاء الجسد؛ فالعقدة الحياتية فيه وهي معرفة الله، تنشر الحياة إلى آمال الإنسان وميوله المتشعبة في مواهبه واستعداداته غير المحدودة، كلٌّ بما يلائمه، فتُقَطِّر فيها اللذة والنشوة وتزيدها قيمة وأهمية، بل تبسطها وتصقلها.. فهذه هي نقطة الاستمداد.

والمعرفة الإلهية نفسها هي نقطة استناد للإنسان أمام تقلبات الحياة ودوّاماتها، وأمام تزاحم المصائب والنكبات وتواليها عليه، إذ الإنسان إن لم يعتقد بالخالق الحكيم الذي كلُّ أمره نظام وحكمة، وأسند الأمور والحوادث إلى المصادفات العمياء، وركن إلى ما يملكه من قوة هزيلة لا تقاوم شيئا من المصائب.. فإنه سينهار حتما من فزعه وخوفه من هول ما يحيط به من بلايا، وسيشعر بحالات أليمة تذكّره بعذاب جهنم. وهذا ما لا يتفق وكمالَ روح الإنسان المكرّم، إذ يستلزم سقوطه إلى هاوية الذل والمهانة، مما ينافي النظام المتقن القائم في الكون كله، أي إن هاتين النقطتين: نقطة الاستمداد والاستناد ضروريتان لروح الإنسان. فالخالق الكريم ينشر نور معرفته ويبثها في وجدان كل إنسان من هاتين النافذتين -نقطة الاستمداد ونقطة الاستناد- فمهما أطبق العقلُ جفنه ومهما أغمض عينه، فعيون الوجدان مفتّحةٌ دائما.

وهكذا فشهادة هذه البراهين الأربعة العظيمة القاطعة تدلنا على: أن الخالق الجليل كما أنه واجب الوجود أزلي واحد أحد فرد صمد عليم قدير مريد سميع بصير متكلم حي قيوم، فهو متصف كذلك بجميع الأوصاف الجلالية والجمالية، لأن ما في المخلوقات من فيض الكمال إنما هو مقتبس من ظل تجلي كمال خالقه الجليل، فبالضرورة يوجد في الخالق سبحانه من الحُسن والجمال والكمال ما هو أعلى بدرجات غير متناهية وبمراتب مطلقة من عموم ما في الكائنات من الحُسن والكمال والجمال. ثم إن الخالق سبحانه منـزّه عن كل النقائص، لأن النقائص إنما تنشأ عن افتقارِ استعدادِ ماهياتِ الماديات وقابلياتها، وهو سبحانه وتعالى منـزّه عن الماديات، مقدس متعال عن لوازمَ وأوصاف نشأت عن إمكان ماهيات الكائنات، ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾ (الشورى:١١).

فسبحان مَن اختفى لشدة ظهوره.. سبحان مَن استتر لعدم ضده.. سبحان مَن احتجب بالأسباب لعزته.

سؤال : **ما ترى في «وحدة الوجود»**؟

الجواب : إنه استغراق في التوحيد، وتوحيدٌ ذوقي لا

ينحصر في نظر العقل والفكر؛ إذ إن شدة الاستغراق في التوحيد -بعد توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية- يُفضي إلى وحدة القدرة، أي لا مؤثر في الكون إلاّ الله. ثم يؤدي هذا إلى وحدة الإدارة، وهذا يسوق إلى »وحدة الشهود« ثم إلى »وحدة الوجود«. ومن بعدها رؤية وجود واحد ثم إلى رؤية موجود واحد... فشطحات علماء الصوفية التي هي من قبيل المتشابهات لا تقام دليلا على هذا المذهب. فالذي لم تتخلص روحُه من تأثير الأسباب، ولم تتجرد من دائرتها، إذا ما تكلّم عن وحدة الوجود يتجاوز حدَّه. والذين يتكلمون به إنما حصروا نظرهم في «واجب الوجود» حصرا؛ بحيث تجرّدوا عن الممكنات، فأصبحوا لا يرون إلّا وجودا واحدا، بل موجودا واحدا.. نعم، إن رؤية النتيجة ضمن الدليل، أي رؤية الصانع الجليل ضمن موجودات العالم شيء ذوقي ولا يمكن بلوغها إلّا باستغراق ذوقي. فإدراك حقيقة جريان التجليات الإلهية في جداول الأكوان، وسريانِ الفيوضات الإلهية في ملكوتية الأشياء، ورؤيةُ تجلي الأسماء والصفات في مرايا الموجودات.. أقول: إن إدراك هذه الحقائق أمرٌ ذوقي. إلّا أن أصحاب مذهب وحدة الوجود لضيق الألفاظ عبّروا عن هذه الحقيقة بالألوهية السارية والحياة السارية في الموجودات، وحينما حصر أهلُ الفكر

والعقل هذه الحقائق الذوقية في مقاييس فكرية وعقلية جعلوها مصدر كثير من الأوهام والأفكار الباطلة.

ثم إن بين ما لدى الفلاسفة الماديين، ومن وهنَت عقيدتُهم من المفكرين من مذهب «وحدة الوجود» وما لدى الأولياء منه بونا شاسعا وفروقا كثيرة بل إنهما متضادان ونقيضان. فهناك خمسة فروق بينهما:

الفرق الأول: أن علماء الصوفية قد حصروا نظرهم في «واجب الوجود» واستغرقوا في التأمل فيه بكل قواهم حتى أنكروا وجودَ الكائنات ولم يعودوا يرون في الوجود إلّا هو. أما الآخرون (الفلاسفة الماديون وضعفاء الإيمان) فقد صرفوا كلَّ تفكيرهم ونظرهم في المادة حتى ابتعدوا عن إدراك الألوهية بل أَوْلَوا المادة أهميةً عظيمة حتى جعلتهم لا يرون من الوجود إلّا المادة، بل تمادوا في الضلالة بحيث مزجوا الألوهية في المادة بل استغنَوا عنها لشدة حصرهم النظر في الكائنات.

الفرق الثاني : أنَّ ما لدى الصوفية من »وحدة الوجود« تتضمن «وحدة الشهود» في حين أن ما لدى الآخرين يتضمن «وحدة الموجود».

الفرق الثالث : أنَّ مسلك الأولياء مسلك ذوقي؛ بينما مسلك الآخرين مسلك عقلي.

الفرق الرابع : يحصر الأولياء نظرهم في الحق تعالى ثم ينظرون نظرا تبعيا ثانويا إلى المخلوقات، بينما الآخرون يحصرون نظرهم أولا وبالذات في المخلوقات.

الفرق الخامس: أنَّ الأولياء عبّادُ الله ومحبّوه، بينما الفلاسفة يعبدون أنفسهم وهواهم، فأين الثرى من الثريا.. وأين الضياء الساطع، من الظلمة الدامسة.

تنوير

لو افتُرض -مثلا- أن الكرة الأرضية قد تشكلت من قطع زجاجية صغيرة جدا ومختلفة الألوان، فلا شك أن كل قطعة ستستفيض من نور الشمس حسب تركيبها وجرمها ولونها وشكلها. .فهذا الفيض الخيالي ليس الشمسَ بذاتها ولا ضياءها بعينه.

فلو نطقت ألوانُ الأزهار الزاهية المتجددة والتي هي تجليات ضياء الشمس وانعكاسات ألوانه السبعة، لقال كل لون منها: إنَّ الشمس مثلي. أو إن الشمس تخصّني أنا.

آنْ خَياَلَاتِى كِه دَامِ اَوْلِياسْت

عَكْسِ مَهْرُويَانِ بُوسْتاَنِ خُدَاسْت[30]

ولكن مشرب أهل وحدة الشهود هو: الصحو والتمييز والانتباه، بينما مشرب أهل وحدة الوجود هو: الفناء والسُكر. والمشرب الصافي هو مشرب الصحو والتمييز.

«تَفَكَّرُوا فِي آلَاءِ الله وَلَا تَفَكَّرُوا فِي ذَاتِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَقْدِرُوا»[31]

حَقِيقَةُ الْمَرْءِ لَيْسَ الْمَرْءُ يُدْرِكُهَا

فَكَيْفَ كَيْفِيَّةُ الْجَبَّـارِ ذِي الْقِدَمِ

هُوَ الَّذِي أَبْدَعَ ٱلأَشْـياَ وَأَنْشَـأَهَا

فَكَيْفَ يُدْرِكُهُ مُسْتَحْدَثُ النَّسَمِ[32]

* * *

---

[30] »إن الخيالات التي هي شِراكُ الأولياء إنما هي مرآة عاكسة تعكس الوجوه النيرة في حديقة الله« والبيت لجلال الدين الرومي في مثنويه ١/ ٣.

[31] الطبراني، المعجم الأوسط ٦٤٥٦؛ اللالكائي، السنة ١/ ١١٩/ ٢-١؛ البيهقي، شعب الإيمان ١/ ٧٥.

[32] ينسب إلى الإمام علي كرّم الله وجهه، ديوان الإمام علي ص ١٨٥ - بيروت.

هذا ولم يُدرج هنا القسم الثاني -الذي يخص بقاء الروح- من رسالة »«نقطة» حيث أوفته حقّ الإيفاء «الكلمةُ التاسعة والعشرون »و«الكلمة العاشرة -الحشر». فنحيل القارئ الكريم إليهما. أما القسم الثالث الذي هو عبارة عن أربعة عشر درسا فقد نُشر مستقلا تحت عنوان: «المدخل إلى النور».

فهرس الكتاب

حقيقة التوحيد

إشارات الى التوحيد الحقيقي

نقطة من نور معرفة الله جل جلاله